
أشرف
الخمايسي
الطبعة
2
أهواك
خمس نوفيلات
حول
أسطورة العشق

أهواك
نوفيلات
أشرف الخمايسي

التصميم الداخلي والغلاف: آب إمام - آب ستوديوز

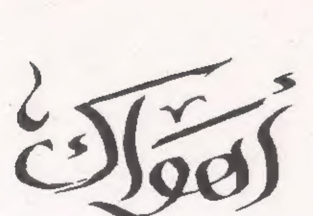
الطبعة الثانية فبراير 2015
الطبعة الأولى يناير 2015

الخمايسي، أشرف
أهواك، نوفيلات،
ط1 دار الربيع العربي، القاهرة، مصر.
ردمك: 978-977-5221-22-3
رقم الإيداع(مصر): 2014/20992

الربيع العربي

للطباعة والنشر والدعاية والإعلان
المدير العام: أحمد سعيد عبد المنعم
002-01141411118
002-01140848568
www.rabe3arabe.com
rabe3arabe@gmail.com
rabe3arabe





إلى
كلِّ قلبٍ
مرَّت في سمائه
سحابة حُب.

«الشّباب» لا يحبُّون كما ينبغي...
«الشيوخ» هُم من يفعلون ذلك!

سمكة فاتنة وموزونة.

«القاهرة».

شارع «كلوت بك».

لوكاندة «رومانس».

الغرفة 22.

رُغم استغراقي في النوم إلَّا أنِّي شعرت بباب الغرفة يُفتح بهدوء!

كيف؟

لقد أغلقت هذا الباب بالتِّرباس الدَّاخلي الصَّغير!

رفعت رأسي من على الوسادة المتهالكة، فرأيت فتاة!

ذُهلت.

لم أذهل لكونها تمكَّنت من الدخول إلى غرفتي رغم انغلاق بابها بالتِّرباس الدَّاخلي، وإنَّما لفرط حسنها، وجمالها.

البنت، بالكاد، عمرها «عشرين»، الوجه مدوّر، والخدّان بغمّازتين، والذّقن لا يبز عن حدود الاستدارة، وبغمّازة أيضًا، والعينان عينا بقرة، والأنف دقيق، والشفتان مكتنزتان، والبشرة خمريّة، وشعرها في سواد الليل، منسدل حتّى أعلى الرّدفين، كموج بحر ينساب تحت طوق قماش، خيطت به زهور ملوّنة من قماش، أيضًا، لكنّه تغطّى بالتّرتر.

البنت ترتدي جلبابًا طويلًا، من كتفيها حتّى أصابع قدميها، يلمع بخطوط طوليّة برّاقة، مفضّضة ومذهّبة، ويضيق على جسدها، فبدت مثل سمكة فاتنة، رشيقة وموزونة.

البنت رقبتها قمع سُكّر، ينضح بلون الورد البلدي.

وقفت تنظر لي، وشفتاها تصنعان نصف ابتسامة، فاعتدلتُ نصف اعتدالة، بينما صنعت شفتاي دهشة تامّة.

الغرفة 22 في لوكاندة «رومانس» ضيّقة، لمّا خطت البنت فيها خطوة واحدة، صارت فوق رأسي.

حديقة زهور فوّاحة بالأريج العبق، روائحها دخلت صدري، فامتلأتُ بحياة أروع.

أمسكت بيدي، فاندفعت أرواح بهيجة إلى سكن روحي، وخرج صوتها منها كلها، كان فمها متغلقًا، فخرج صوتها

منها كلها: انهض لتأتي معي.

البنت صوتها «ناي»، أو عزف «ربابة»، أو تقاسيم طقاطيق على «القانون»، صوتها يسكر.

قالت موسيقاها بعزف لحوح: هيّا.. انهض لتأتي معي.

لو كنت في وعي، ما سألتها: إلى أين؟

فهذه بنت يذهب معها الإنسان إلى مرابض الشّياطين من غير سؤال، لكنّي كنت سكرانًا بسحرها الخارق، فسألتها: إلى أين؟

قالت: شارع «المُعِز».

وتدللت، وقالت: أورّيك جُنّتي.

ـ أعوذ بالله.

هتفت وأنا أعتدل في فراشي بسرعةِ حيّةٍ تهاجم فأرًا. نظرت إلى البنت فلم أجدها، ولا كانت يدها تشد يدي، وباب الغرفة 22، في لوكاندة «رومانس»، مغلق من الدّاخل بالتّرباس.

بصقت عن يميني، وعن شمالي، وقلت في نفسي: ملعون أبو حظي.. حلمي الجميل ينتهي بكابوس!

قلت، لموظف استقبال لوكاندة «رومانس»، وأنا أمد

يـدي إليـه باسـطًا كفّـي: مفتـاح 22 لـو سـمحت.

بيـد كسـولة أعطـاني المفتـاح، من غـير أن يرفـع وجهـه عـن صفحـة الرّياضـة في إحـدى الجرائـد.

صعـدت السّـلالم الضّيقـة، وعندمـا وصلت إلى بـاب الغرفة، تذكّـرت حلـم الليلـة الفائتـة، ارتعـد جلـدي رعـدة خفيفـة، فتحـت البـاب وأنـا أشـعر بأنّـي، يقينًـا، سـأجد البنـت نائمـة عـلى سريـري، فأحسسـت بشـعر رأسي ينتصـب، ويطقطـق.

لـم تكـن البنـت نائمـة في السّريـر، فألقيـت بحقيبـتي، المملـوءة كتبًـا، عـلى المنضـدة الحائلـة الألـوان، وأغلقـت البـاب، ودفعـت التّرباس الدّاخـلي ليتعشّـق في منامـه، وجفـن عيـني الشّـمال يتراقـص.

لـم أغير ملابسي، تعبان، تعبان، تعبان جـدًّا، فرميت جسدي في السّريـر، وتعـبي غلـب خـوفي، وقلـبي كَـنْ، وانغلقـت عينـاي، فغطسـت في النّـوم.

ورغـم أنّي استغرقت في النّـوم، إلّا أنّـني سرعـان مـا عـدت إلى حافّـة اليقظـة، كان بـاب الغرفـة ينفتـح بهـدوء!

كيف؟

كيف؟!

أنا أغلقت هذا الباب، من الدّاخل، بالتّرباس!

رفعـت رأسي، رأيـت البنـت واقفـة في حلـق البـاب، تبتسـم بشـفتيها نصـف ابتسـامة، وتضحـك بعينيهـا ضحكـة في جمـال زغـرودة.

البنــت عمرهــا تســعة عــشر عامًــا، الوجــه هالــة بــدر، والخــدّان وردتــان في قلبيهمـا طلعـان مشـتهيان، والذّقـن رأس يمامـة مزوّقـة ببـؤرة داكنـة، والعينـان عينـا بقـرة سـارحة في مرج أخـضر، والأنـف ألـف مسـتدق، والشّـفتان قريتـان صغيرتـان مليئتـان بمـاء البـيرة، والبشرة ورق زهـرة، وشـعرها ليـل ظالـم يسـتبد بردفـين لهمـا، حتمًـا، ضـوء الصّبـاح.

وفسـتانها، المذهّـب في المفضّـض، يحبـك جسـدها الـذي في ليونـة الملـبن.

وصدحـت موسـيقاها بنغمـة الدّلـع المدسوسـة في مقـام الإلحـاح: هيـا.. انهـض.. انهـض.

اصطدمت بما سيحدث، ستقول لي: تعال أوزّيك....

أمسـكت يـدي، وجذبتـني بقـوّة، فاعتدلـت، نظرت إليهـا وفي عيـني الفـزع كلـه.

البنــت ضحكــت بعيــني عــروس في فجــر صباحيتهــا: مُــذ قُتلـت لـم يعـرف أحـد حـتّى الآن مـكان جثـتي.

وجذبتني من ذراعي: انهض.

الغرفـة 22، في لوكانـدة «رومانـس»، لهـا شبّاك يطـل عـلى خـواء مملـوء قمامـة، ثـم بعـد الخـواء أسـطح مبـان قديمـة جـدًّا، واطئـة ومتهالكـة، ثـم شـارع «كلـوت بـك» وضجيجـه الـذي شـعرت بـه يعصـف بالغرفـة، لمّـا مـدّت البنـت يدهـا وفتحـت الشُّـباك.

ـ هيّا بنا.

البنـت صعـدت فـوق السّريـر، ثـم بـدأت تضـع إحـدى قدميهـا عـلى حافّـة النّافـذة.

نظـرت إليهـا مسـحورًا، مـاذا تفعـل هـذه المجنونـة؟! لـو قفـزت مـن الشُّـباك سـتتفتّت بـين أكـوام الزّبالـة.

مدّت يدها، وأمسكت بشـعري المضفـور في ضفـيرة واحدة، وجذبتـني إليهـا، قادتـني مثـل راع جـاف القلـب، وانقـدتُ مثـل معـزاة مريضـة، أريـد الـكلام، لكـن فمـي لا ينفتـح!

وضعـت قدمـي، مرغمًـا، عـلى حافّـة الشُّـباك بجوارهـا، ثـم صخبـت الموسـيقى بمقـام هاتـف: اقفـز.

قفـزتُ، ورغـم أنّهـا كانـت تقبـض عـلى ضفـيرتي، إلّا أنّـني سـقطت في الهـواء..

هبـت فزعًـا، أحـاول أن ألحـق بقلـبي الـذي كان يهـوي، وصـدري الـذي ينتفـض، ونَفَـسي الـذي انقطـع.

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وتفلت عن يميني وشمالي.

ـ يخرب بيت أبـو حظي! البنـت حلـوه.. والحلـم صـار مـن أوّلـه لآخـره كابـوس.

حـتّى يصـل الإنسـان إلى لوكانـدة «رومانـس» مـن شـارع «كلوت بك»، عليـه أن يدخـل في زقـاق ضيّـق جـدًّا، في ناصيتـه اليمـين كشـك بقالـة عامـر، وفي ناصيتـه الشّـمال فاترينـة مشـويّات «الفـراخ»، و«الممبـار»، و«الكرشـة»، و«لحمـة الـرّأس»، ومشـويّات «الكفتـة»، و«الكبـاب».

بعـد كشـك البقالـة محـل صغـير، للبقالـة أيضًـا، لكنّـه يضيـف إلى نشـاطه عمـل سندويتشـات «الجبنـة»، و«الحـلاوة الطّحينيّـة»، و«اللانشـون»، بعـد هـذا المحـل مقهـى صغـير للغايـة، وبعـد المقهـي مطعـم أسـماك نيليّـة، تتضـوّع منـه روائـح السـمك «المشـوي»، و«المقـلي»، بداخلـه رجـل لـه كـرش يلفّـه بمـلاءة بيضـاء اتّسـخت بالشّـحومات، وتـدور عـلى الزّبائـن، الذيـن جلسـوا عـلى المناضـد خـارج المحـل، بنـت.. يـاااااه.. البنـت!

البنـت الـتي، بالـكاد، عمرهـا يقـترب مـن العشريـن، وجههـا المـدوّر، وخدّاهـا اللـذان بغمّازتـين، وذقنهـا الـذي لا يـبز عـن حـدود الاسـتدارة، ولـه غمّـازة، وعيناهـا اللتـان كعيـني بقـرة،

وأنفهـا الدَّقيـق، وشـفتاها المكتنزتـان، وبشرتهـا الخمريَّـة، وشعرها الـذي في سواد الليـل، ينسـدل إلى أعـلى ردفيهـا، مثـل مـوج بحـر ينسـاب تحـت طـوق قمـاش، خيطـت فيـه زهـور قمـاش تغطَّـت بالتَّرتـر.

البنـت ترتـدي جلبابهـا الطَّويـل، يلمـع بخطـوط مفضَّضـة ومذهَّبـة، تمتـد مـن عنـد كتفيهـا، وحـتَّى أطـراف أصابـع قدميهـا، ويضيـق عـلى جسـدها، فتبـدو مثـل سـمكة فاتنـة، رشـيقة، وموزونـة.

توقَّفتُ، تمامًا، عن الحركة!

أنظر إليها، أكاد أخرقها بنظراتي.

فمي مفتوح، ولساني يزحف إلى خارجه، يندلق مرتخيًا.

أنا مذهول.

البنـت صنعـت بعينيهـا نظـرة اندهـاش، وعملـت بركـن شـفتيها نصـف ابتسـامة، ومشـت بجـواري فغمرتـني روائـح ورود الحدائـق، رغـم أنَّهـا تحمـل صينيَّـة افترشـت بأسـماك «مشـوية» و«مقليـة»!

وصدحت موسيقاها:

ـ اتفضـل عندنـا.. سـمكنا نشـويه.. نقليـه.. برضـه بيفضـل صاحي..

فعـلا! كان سـمكها يلعـب في الأطبـاق، وينظـر لي بعيـون عايشـة.

الكلـب ابـن الكلـب، الجالس في استقبال لوكانـدة «رومانس»، رفـض أن يبـدِّل لي الغرفـة، قـال إن الغـرف كلهـا مشـغولة، وقـال:

ـ مالها الغرفة 22؟!

كنت سأقول له:

ـ فيها عفاريت.

لكن لساني أصابه الخرس، وعندما نطق قال:

ـ فيها «قمل» و«أكلان».

لوى، ابن الكلب، شفتيه وهو يعطيني المفتاح.

صعـدت السَّـلالم الضَّيقـة، هـل سـأجد البنـت نائمـة في السَّريـر، لقـد بـدأت تزاولـني، هـا أنـا رأيتهـا في مطعـم السَّـمك، طلعـت مـن أحلامي إلى واقعي!

أدرت المفتـاح، فتحـت البـاب، السَّريـر خـال، ومرتَّـب، رعدة قويَّـة أطاحـت بجلـدي، ألقيـت حقيبـتي عـلى المنضـدة، تعبـان وأريـد النَّـوم، فرميـت بجسـدي عـلى السَّريـر، لكـن النَّـوم، الليلـة، حمـام يحلِّـق ولا يحـط، ونظـراتي مركَّـزة عـلى التَّريـاس

المتمكّن من الباب.

أنا صاح، مستيقظ، منتبه تمامًا، وما يجري ليس حلمًا، وإنّما حقيقة.

التّرباس ينزلق، الباب ينفتح، وتطل البت، تقف، تبتسم نصف ابتسامة، وتخطو، باتّجاهي، تلك الخطوة الوحيدة، فتصير فوق رأسي، تقبض على يدي، وتشدّني إلى النّافذة.

أنا صاحٍ أم نائم ؟

صوتها يصدح منها كلّها:

ـ هيّا بنا.

تقف، منحنية، على حافة النّافذة، أقف مرتعشًا بجوارها، عليل نسيم الليل يأتي محملًا بروائح شواء «الكفتة»، و«الدّجاج»، وبخار قلي «السّمك»، وعوادم السّيارات التي تتزاحم في شارع «كلوت بك» محاولة التّحرك.

ـ اقفز.

قفزنا، طارت، وسقطتُ، جذبتني من ضفيرة شعري، حاولت الطيران، كانت أكوام القمامة تقترب بسرعة مهولة.

وفي آخر لحظة، ارتفع جسدي برغبة أكيدة، مني، في الطّيران، حتّى لا ألقى الموت في كومة قمامة.

ارتفعنا، فردت جسدها على الهواء مثل حدأة تنساب في براح السّماء من غير حركة أجنحة.

ـ احفظ الطّريق.

ـ أي طريق؟!

ـ الطّريق إلى شارع «المُعِز».

ـ لماذا؟!

ـ لأنّك.. في المرّة القادمة.. ستمشي إليه على قدميك.

نطير فوق شارع «كلوت بك»، السّيارات المرصوصة، في نهره، تكاد تتلاصق، كلاكساتها تزعق ضجرًا من طول الوقوف، أسطح البنايات الغارقة في كراكيب وعشش قميئة المنظر، بشر يتحرّكون مثل «النّمل»، حركاتهم تبدو عشوائية.

ـ الآن نحن نطير فوق جراج «الأوبرا».. أنظر.. ميدان «العتبة».

ياه.. زحام.. ياااه.. أبونا «آدم» أنجب كل هذه البشريّة!

«أوتوبيسات»، «ميكروباصات» سرفيس، عربات «الكارو»، «درّاجات» تسعى يحمل راكبوها أقفاصًا مثقّلة بالخبز فوق رؤوسهم.

وضجيج يرتفع مثل أزيز ذباب عملاق.

أنا فرحان جدًّا بطيراني.

المألوف ألّا يطير أحد من البشر هكذا مثل العصافير، أنا الآن أخرق المألوف، هذا المتوحّش بصعوبته، واستحالته أحيانًا، لكن المحاولة تثبت العكس، المألوف أجبن من فأر.

ها أنا أطير، الطّيران ليس صعبًا، الطّيران أسهل كثيرًا ممّا نتخيّل.

شكرًا للبنت التي ينساب شعرها وراءها مرفرفًا كأجنحة

الحمام.

ـ كوبري «الأزهر».. «مصر» القديمة..

مئذنة المشهد الحسيني، أعجوبة المآذن، كأنّها قلم عملاق يرتكز إلى الأرض في وضعيّة «صاروخ» يتأهّب للانطلاق نحو السّماء.

ـ شارع «المُعِز».

ياااه.. كل هذه مآذن؟ مساجد؟ المباني المملوكيّة.. عبق «تفّاح» يحترق في أحجار «المعسّل»، ورائحة «الزّنجبيل» الحرّيفة.

ـ اقتربنا.. استعد للهبوط.

الشّارع ضيّق، رُصف بقوالب من «جرانيت» أسود يلمع، وعلى جانبيه محلات ودكاكين، تبيع النّحاسيات، تبيع الفضّيات، تبيع الذّهبيات، تبيع «نراجيل»، تبيع تماثيل «الفراعنة»، تبيـــ...

ـ الآن.

نظرت تحتي، سطح مبنى قديم، قديم جدًّا، ونظيف جدًّا.

المناضد عليها زهاري ورد صغيرة، والزّبائن جلسوا على الكراسي، يضحكون وهم يأكلون الأسماك، وتطل البنت من باب المطعم، تحمل صينيّتها رُصّت عليها الأطباق، وفي الأطباق السّمك صاح.

أجلس إلى إحدى المناضد، بينما البنت تنساب، بين الكراسي، مثل عبق «الرّيحان»، ولمّا تقترب مني تُميل رأسها ناحيتي، وتضحك، فيدق قلبي أركان صدري ويزلزله، وترتعش روحي.

البنت مرسومة لوحة للعشق، وجهها يسيل بملامح دنيا مقطوفة من جنّة عذاب، غمّازتا خدّيها تتكئان راحتي، فتفتحا بوابات السّهد، ذقنها المغمور يرميني في وسع الغرام.

تخطو البنت في جواري، تحمل أسماكًا مقليّة ترتع في حقل مزروع بـ«الجرجير» و«البقدونس»، تحيط به شرائح «الليمون».

زهور القماش الملوّنة تتمايل فوق شعرها الهفهاف.

جلستُ أنتظرها، وجاءت، ورصّت أطباقها فوق المنضدة، وقالت بالموسيقى:

ـ سمكنا نشويه.. نقليه.. يفضل صاحي.

وضحكتُ، وابتسمتُ ابتسامة بلهاء، وأردت أن أقول كلامًا، لكنّ خرسًا أصاب لساني، ولمّا استدارت، كانت قد ألقت في روحي جمرة متّقدة بحجم جوفي، فطفقت عيناي بدمعتين.

وعيون «السّمك» تغمز لي، تعبث.

والبنت سمكة فاتنة، ومورونة، تتقافز على أمواج حبّي.

أنا رأيت هذه البنت... رأيتها من قبل.

رأيتها خطوطًا منحوتة على جدار حجري منزو من جدران معبد «الرّامسيوم»، في «الأقصر»، جدار يشمخ، وحيدًا، بين الأطلال العتيقة، تنبت حوله حشائش حادّة، ومدبّبة، مثل أشواك غضّة.

هي البنت المرسومة على الجدار بالأزاميل، عيناها فرعونيّتان، مسحوبتان بخيط «كُحل» زاهي السّواد، وشعرها يطغى على كثيبي ردفيها، النّهدان الألقان، إنسياب البطن، غور السرّة، السّاقان الباسقتان، تنظر نظرتها الحالمة نحو شمس «آمون»، بأنف مستدق شامخ، ترفع ذراعًا إلى أعلى، ينتهي بأنامل تقبض برقّة على ذيل سمكة، تدلّت مستسلمة لأشعة رب وهّاج، وذراعها الآخر يتدلّه، ويتعنّد......

هل حوّلت وجهها عن «آمون»، ونظرت إليّ؟!

«الرّامسيوم» !!.

لمعة الفجر في آفاق الشّرق، تبشّر بتعالي قرص «البرتقال».

أمشي على «الكورنيش» حتّى المكان المخصّص لمعدّية النّهر، «النّيل» لا يغفو أبدًا، لكنّه، في الفجر، يكابد الوسن، فتزحف فوقه «المعدّية» من غير تعب.

في وسط «المعدّية» فاترينة لبيع الحلوى، وبائعة الحلوى تعطيني ظهرها، وهي ترتّب حلواها وراء زجاج برّاق، بائعة الحلو......!

زهور قماش عُلّقت بمهارة على شعر فاحم مهمر، يفيض على الظّهر حتّى يُغرق الرّدفين فيصحّا، والجلباب

الأسود يحبك المحبوك، فتتفجَّر فتنة منفلتة.

هل هي البنت التي...؟!

استدارت، فطلع وجهها، وجه حمامة، لكنِّي هببت واقفًا، مفزوعًا.

هي البنت!

كيف استطاعت التَّخلص من قبضة جدران «الرَّامسيوم»؟!

بحلقتُ في عينيها الفرعونيَّتين، فمدَّت يدها إلى لفافة، لمَّا فضَّتها ظهر طبق خوافه مزخرفة بأوراق زهور، وضعته أمامها، ونظرت في عيني، وأمالت رأسها، وضحكت، قالت:

ـ تعال افطر معي.. كل سمكًا.

ورفعت ذراعًا تقبض أنامله على ذيل سمكة مشويَّة، تدلَّت مستسلمة. وذراعها الآخر انغرست أنامله في حصر ميَّاس.

هذه البنت حقيقة أم خيال؟!

هذا الظَّنى الذي يقتلني.. من أجل حقيقة أم خيال؟!

خيال.

هذه البنت خيال.

مثلها لا يكون حقيقة.

الحقيقة هي أنِّي أتعذَّب بالغرام، جسدي نحل، حتَّى إن وجهي نتأت عظامه، حتَّى إنِّي ما عدت أتحمَّل دقَّات قلبي من فرط هزالي، طالت لحيتي، وتشعَّث شاربي.

منذ متى لم أغيِّر ثيابي؟

ليست لديَّ رغبة في الاستحمام، ولا حتَّى في غسل وجهي، ليست لديَّ رغبة في دخول بيتي، ليست لديَّ رغبة في البقاء في «الأقصر»، ليس لديَّ رغبة في البقاء داخل جسدي.

البنت حقيقة أم خيال؟!

جبل «القرنة» يملأ الأرض مهيبًا، صدره مثل صدور ملوك الفراعنة يتزيَّن بالألوان، يتحلَّى ببيوت تلوَّنت بالجير الملوَّن، وانبسطت أمامه حقول القصب، في سكون الخضوع لحكمته، وتمثالا «ممنون» سلطانان مكينان، يصارعان الفناء، وأطلال «الرَّامسيوم»، والبنت منحوتة على جدار التَّاريخ، تقدِّم سمكتها لرب يتوهَّج بالنُّور، ولا يقبل السَّمكة.

البنت تمر الآن أمامي، تسوق قطيعًا من الغنم، تنظر إليَّ، وتغمز بعينها، وتبتسم، وتُخرج من حقيبة جلديَّة

رتُّه، علّقتها بكتفها، سمكةً فضيّةً ترقصُ في ضوء الشّمس، فتتلألأ.

البنت تخطو على زهر «البرسيم»، خطو «غزالة»، فيحف وقع قدميها وجداني، فتغرورق عيناي.

اااه.. يارب السّماء.. يا سماء الحب.. يا حب العذاب.. يا عذاب الغرام.

البنت، في الأعالي، تسوق الغرام إلى عالمي، تطير بأجنحة ريشها قلوب خفّاقة.

تتساقط دموعي.

أركب القطار.

وداعًا يا «الأقصر»، وداعا يا «الرّامسيوم»، وداعًا يا جدران التّاريخ، البنت منحوتة، الآن، في قلبي، وشوك سمكتها ينكأ شغافه، ينكأ من غير رحمة.

البنت حطّت في شرفة مئذنة مسجد «إسماعيل أغا السلحدار»، بينما اهبدتُ جوارها ساقطًا على جنبي، وقبل أن أعتدل، رأيت تدويرة كعب إحدى قدميها، تفّاحة من حرير وردي قاتم، يُضيء بنفسه، فلا تحجبه ظُلمة الليل، نفسي تهفّني، أتلهّف على قضم التُّفاحة، لكنّها سحبتني من ضفيرة شعري، فوقفت.

انسللنا، عبر فتحة مروّقة بمنحوتات مممة، إلى سلّم المئذنة، سلّم من صحور مجلمدة، الهواء داخل المئذنة مملوكيًا، ينحبس داخلها، لا يخرج إلى هواء عصرنا، وهواء عصرنا لا يعبأ بالمباني القديمة.

السلّم يهبط حلزونيًا، يهوي إلى ضِيق، وهواء «المماليك» يمتزج بعبق زهور البنت، فينضوّع مسكًا معتّقًا.

ـ لو دخلنا من باب المسجد كان أفضل.

ضحكت، فتقافزت ضحكتها بين الجدران والدّرجات الضيقة.

ـ في المرّة القادمة ستدخل من باب المسجد.. وستكون مرهقًا بحمل ثقيل.

ـ حمل ثقيل؟

ـ نعم.. جثّتي.

انخلع قلبي، مالها؟! مالها هذه البنت؟! مالها؟!

ـ بعد أن تقتلني.. ستلفّني في ملاءة السّرير.. وستتركني ملقاة في غرفتك بلوكاندة «رومانس».. وتنزل إلى شارع «كلوت بك» لتبحث عن جوال كبير.. وستجده...

تتكلّم بالموسيقى الصدّاحة المرحة، وأنزل وراءها

الدَّرجات المملوكيَّة، الحلزونية، الوعرة، تتحدَّث عن شيء مهووس، تريد أن تصيبني بالجنون.

أنا أقتلها؟

أنا أريد أن آخذها في حضني، أحوطها بذراعي، أتحسَّس ظهرها بكفِّي، أضغط بصدري ثدييها.

أنا أقتلها؟

أنا أريد أن أمصَّ شفتيها، وأشرب منهما البيرة.

أنا أقتلها؟

أنا أريد أن آكلها قطعة قطعة، من غير أن تنقص منها قضمة واحدة.

ـ ستضعني في الجوال.. وستظل تفكّر طويلًا في كيفيَّة الخروج بجثَّة من لوكاندة تزدحم بالنَّاس.. وكل ما ستتوصَّل إليه من خطط سيكون غير قابل للتَّنفيذ.

البنت مجنونة، ساحرة ومجنونة، تطير من غير أجنحة، وتتكلَّم بما لا يُعقل.

ـ لكن ستحالفك الأقدار.. وتعطيك فرصة أثمن من «الياقوت».. وتتَّسق لك مصادفة...

يبدو أنَّها تتحدَّث بمنتهى الجد، رغم أنها تلعب

بكلامها....

أنا أقتلها؟!

خرجنا من غرفة المئذنة إلى صحن المسجد.

أنا أقتلها؟!

البنت لا تدري أنَّها صارت أنفاسي، شهيقي وزفيري، هل يقتل الإنسان شهيقه وزفيره؟! البنت لا تدري أنَّها صارت كل هذا الكون الذي أعيشه، أقماره، وشموسه، وبحاره، صارت ربَّة عالمي، وأنا عبدها.

أيستطيع العبد قتل ربِّه؟!

ـ ستمضي في شارع «كلوت بك» متجها إلى «الأزهر».. وفي الضَّجيج.. والزِّحام.. ستمضي مطمئنًا بحملك.. فلن يهتم أحد بك.. خاصَّة في منطقة مثل هذه.. مكتظة بمصانع صغيرة. يحمل عمَّالها الإنتاج على أكتافهم إلى شركات الشَّحن.. لن تثير لفافتك الكبيرة.. المحمولة على كتفك.. أي شبهات.

صحن مسجد «إسماعيل أغا السلحدار»، أعمدة رشيقة ذات طابع قوطي، و«شخشيخة» ذات زجاج منمنم، ملوَّن، كتابات قرآنية منقوشة في الصَّخر بصبر.

طارت البنت من جواري، وأخذت تحلّق في فضاء

الصَّحن، وتضحك، تتقافر ضحكتها بالصَّدى، بدت ملاكًا بديعًا نزل لتوِّه من جنَّة «الفردوس»، وحدت نفسي أحلِّق خلفها، أحاول اللحاق بها، لاحظَت محاولتي فبدأت تناور كي لا أدركها، كدت أصطدم بالتُّحفة، المهولة، المتدلِّية من وسط «الشخشيخة».

الآن أنا أريدها، الآن هي اللحظة الوحيدة التي امتنع عني فيها القلق، والآن هي اللحظة التي أشعر فيها أن البنت تريدني، الآن هي تتعمَّد البطء، لأستطيع اللحاق بها، تهبني فرصة العمر.

عبق «المسك» ينبعث هادئًا من السَّجاد المرسوم بأقواس، لا حصر لعددها، تتَّجه نحو القِبلة، والبنت تحتي، مستكينة، وأنا أمص ماء البيرة من قربتي شفتيها، أنفاسنا المحمومة تتعارك في فضاء الصَّدى، وحمامة تطل من إحدى الطَّاقات البيضاويَّة الضَّخمة، الموزَّعة بالقرب من سقف المسجد، تهدل، فيتراقص هديلها مع أنفاسنا المحمومة.

أمص ماء البيرة، بينما تحيط أصابعي بقمع رقبتها الشكر، تتوسَّلها روحًا مبهجًا من أرواحها، كي أستبدل روحي المنهك.

عريانان، وملابسنا صارت قطعًا تطير في الهواء، تحملها

مناقير حمام، كثير، يرفرف في فضاء الصَّحن، يلعب، ويهدل.

قارورتا خمر مكوَّرتان، وأشرب السُّكْر من الحلمتين، أشرب وأتضلَّع، وأضغط على الثَّديين، فيمجَّان الهوس حتى الثُّمالة، لكنَّها تكركر بضحكة الحور، وتميل، فتلقيني من فوقها، فأسقط على جنبي، كتلة لهب تفح كأفعى.

البنت تسير عارية نحو «المنبر»، ترتقي درجاته بمياسة، درجة درجة، حتَّى جلست على مقعده، ونظرت إليَّ من فوق، وهزت رأسها، فطار شعرها عبيرًا سلطانيًا.

نور في «المنبر»، ودموع في عيني، فكرة تعذِّبني، وتحرق قلبي، هذه البنت ليست لي، هذه البنت مخلوق سماوي، وأنا ابن «آدم» المخلوق من طين، قد يطير الطِّين في وسع السَّماء، لكن الطِّين طين، والسَّماء سماء، والطِّين مآله التُّراب.

جدار «الرَّامسيوم»، والبنت عارية تقدِّم سمكتها للرَّب الشَّاطع.

وفي منبر مسجد «السُّلحدار»، وقفت البنت عارية، تخرج موسيقاها منها كلها:

ـ الحمد لله الذي أبدع العشق.. وجعل له أوانٍ من

قلوب.. والحمد لله الذي أوجد الهوى من الفناء.. وجعل غايته الفناء...

كانت تمد ذراعها إلى أعلى، وفي يدها سمكة فضّية ترهج!

ثم صرخت بصوت ملتاع:

- يا حبيبي.. يا حبيبي..

وهوت!

تدحرجت على كل درجات «المنبر»، قبل أن أفيق من هول صراخها الملتاع، وأحطتها بين ذراعي، وموسيقاها تروح، هَمَسَت:

- جئّتي في سبيل «السّلحدار».. خلف جدار الدّوران الضّيق.. السُّلم.

وصمتت!

ملابسنا يلقيها «الحمام»، أضم البنت إلى صدري، أضغط، أرجّها، عل روحي تحرج منّي إليها.

هل يمكنني فعل شيء غير العويل والصّراخ بصوت ملتاع:

- يا أيُّها الرّب السّاطع.. كنت أخذت السّمكة! تأخذها هي؟! كنت أخذت السّمكة.

البنت حيّة، تنساب بين ماضد الزّبائن، صينيّة الأسماك على كفّها، وضحكة الحور على شفتيها، تنظر إلي وتغمز، وتميل رأسها، وتهمس:

- سمكتنا صاحي.

وجهي ينعكس بمرآة قديمة في صدارة المطعم الضّيق، هل هذا الوجه وجهي أنا؟!

شعري صفيرة متهرّئة، تهوّش حولها شعر تيبّس، ما كل هذه اللحية التي أراها؟! ما كل هذا الوسخ الذي علق بها؟! وشارب كثيف سد منفذي الأنف، وغطّى الشّفتين، أهذه رأس آدمي أم رأس تمثال قُد من طين؟

ينظر الرجل، صاحب الكرش الملفوف بملاءة طلتها الشّحومات إليّ، ويقلب شفتيه، وتضحك البنت، وتقول:

- تأكل هنا.. أم تأكل في الغرفه 22 ؟

خرج الكلام من فمي، يجرح حلقي:

- سبيل «السّلحدار».

البنت حقيقة أم خيال؟

أنظر إلى هذا الوجه، البائس، الملطوع في المرآة، أنا حقيقة أم خيال؟!

وكركرت ضحكة البنت.

لم أجن بعد، فها أنا بإمكاني عمل ما أعمله كل ليلة، بعدما ادخل الغرفة رقم 22، في لوكاندة «رومانس»، أغلق الباب بالتّرباس الدّاخلي الصّغير، وأتمدّد في فراشي، وأنام.

ما عاد يقلقني قدوم البنت، ودخولها الغرفة من غير فتح الباب، لأنّي، كرجل عاقل، أفهم تمامًا ما يحدث، إنّه حلم، حلم يتكرّر، ستأتي البنت و..

ما الذي يجعلني كل ليلة أغلق الباب بالتّرباس رغم عدم جدوى هذا؟! هذا هو الجنون بحق، أن نُصر على عمل ما لا جدوى من عمله.

ـ هه.

اعتدلت، ومددت ذراعي بكاملها، وسحبت التّرباس إلى الوراء، ثم ألقيت جسدي في الفراش.

ولم أكن قد تمدّدت، بكامل طولي، عندما ظهرت البنت في فتحة الباب.

البنت ربما لم تكمل العشرين، البنت ربما سنّها تسعة عشر سنة، ثمانية عشرة، ووجهها كحكة مدوّرة في بثّورة ضوء، وخدّاها رغيفا خبز شمسي نقرهما، قبل النّضج، منقار عصفور، وذقنها تينة طابية داعبها نفس المنقار،

الشّفتان قريبتا «بيرة»، والأنف نَفَس الأرواح، وشعرها مسدل، هائجًا، نحو ردفين اشتدًّا استعدادًا للطّغيان، وزهور القماش، المحيطة في طوق القماش، تمايل ملوّنة برائحة البهجة.

البنت واقفة في صدر الباب، تهز رأسها وتبتسم، وتحمل على كفّها صينيّة السّمك.

البنت واقفة في صدر الباب، بجلبابها المحبوك على المحبوك، سمكة فاتنة وموزونة.

لماذا لا تدخل ككل مرّة، وتخطوا خطوتها، وتشد يدي، لنقفز سويًّا من النّافذة ونطير؟!

ـ أدخلي. ـ

ـ سمكنا الصّاحي يا جميل.

خطت خطوتين فصارت عند المنضدة الصّغيرة، المتهالكة في ركن الغرفة، ووضعت الصّينية عليها، السّمك في طبق متّسع مفروش بـ«البقدونس» و«الجرجير»، تحوطه شرائح «الليمون»، هذه أوّل مرّة تدخل البنت غرفتي ومعها صينيّة السّمك.

استدارت، ثم خطت خطوة نحو الباب، رأسها يميل وتتضحك.

- إلى أين؟!

- سأعود إلى المطعم.. تناول عشاءك براحتك.. وفي الصَّباح سآتي لآخذ الصِّينية.

دمي يفور، وروائح زهورها تأجِّج خلاياي، وعري ثدييها، الذي تجلَّى لي في مسجد «السِّلحدار» يشعل لهبًا في جلدي.

أمسكت بيدها، وضغطت أصابعي على كفِّها الرَّقيق:

- تعالي نطير إلى مسجد «السِّلحدار».

نظرت لي بعينين مندهشتين، باسمتين:

- نطير؟!

- مثل كل ليلة.

كركرت ضحكتها وهي تهز رأسها فيطير شعرها، ويفوح مسك «العنبر».

ما الذي حدث للبنت؟ كأنها لا تفهم ما أقول؟!

صعدتُ إلى السَّرير وأنا أمسك كفَّها، فتحتُ النَّافذة، بينما تحاول سحب يدها، لكنِّي شددت من قبضتي عليها، وسحبتها لتصعد معي إلى السَّرير:

- نطير من هذه النافذة.

- ماذا تفعل يا مجنون؟

قالتها بصوت مرتعش! لماذا تتكلَّم بصوت مهزوز؟! دائمًا يكون صوتها واثقًا ومرحًا.

- كل ليلة تسحبينني لنطير من هذه النافذة!

تحاول استخلاص يدها بكل قوَّة، لكن يدي تتشبَّث بها أكثر، ودبيب نمل أسود مقاتل يضج في عروقي، نظرتُ في عينيها، مرعوبتين، ملأهما جمال فتَّان، جمال ساحر، جمال سمعته يصرخ في روحي:

- احضنها.

تبدو في رعبها أروع، أشعر بها تريد الهروب منِّي، لكن أنا أريد الهروب إليها، أريد الهروب فيها، فحوَّطت خصرها بذراعيّ، وضممتها إليّ.

أشاحت بوجهها عنِّي وهي تحاول الفكاك، وخرجت من فمها زفرة قرف:

- إفففف.

- رائحتي عفنة؟ منذ رأيتك وأنا غير قادر على الاستحمام.. ولا حتَّى على غسل وجهي.. منذ رأيتك وكل حبي لك.. لم يتبق من هذا الحب قدرٌ أحب به نفسي.

هل كل هذه القوّة تكمن، فعلًا، في جسدي الذّائب؟!

البنت في أحضاني، تفرفط فتوقظ الشّيطان اللابد في أوردتي، أنفاسها المحمومة تندفع إلى رئتيّ، أرواح أفراس أشعر بها تتلبّسني، لأتحوّل إلى حصان جامح.

أدفع البنت فألقي بها في السّرير، شهقت شهقة عالية، وزعقت:

ـ انت اتجنّنت؟

أنا أحببتك، وأنا لمّا أحب لا أحب كما يحب النّاس، كيف تبقين منحوتة على جدار «الرّامسيوم»؟ يراك غيري، ويحبّك غيري! كيف تبقين غواية لقلوب ربما لو لم ترك ما عرفت الحب يومًا، أنا أحببتك فاعتزلت العالم، لماذا لم تعتزلي العالم، أنا أحببتك فتعلمت البكاء، وأنت تضحكين وتضحكين، أنا أحببتك فذبت فيك، وأنت تحتفظين بكيانك باهيًا ساطعًا، تريني قطعة من تلك القطع التي تشكّلين بها دنياك، ليس أكثر، ثمّ لمّا ينتهي يومك تتذكّرينني، فقط تتذكّرينني لما ينتهي اليوم، فتأتينني لتعبثين بي، لنطير!

ظلّلتها بجسدي، مرادي احتواؤها، أن تدخل في جسدي، أو تحتويني، فأدخل في جسدها.

لكنّها صرخت.

البنت صرخت!

فوضعت كفّي على فمها، وضغطت.

تصرخين؟ خائفة؟ تخافين منّي أنا؟!

انكتم نفسها، فأخذت تهز رأسها بقوّة، تحاول التخلّص من يدي، وشعرها يميس تحتها موج ظلام.

البنت كلما زاد رعبها، زاد جمالها، وتفجّر جسدها، وأشتهي أكلها، أمصغ لحمها قطعة قطعة.

أرفع كفّي من على قربتي البيرة، وأضع فمي، لا أشرب البيرة، وإنما آكل القربتين، تزوم البنت بنفس منحشر في أنفها، وتخطف رأسها من تحت فمي، وتشهق كأنّها تريد اللحاق بحياة تهرب منها، فأحيط بكفّي رقبتها الشّكر، وأهوي بفمي على شفتيها.

حياتي في أن أصير قطعة منها، أو أن تصير قطعة منّي، وهي تضحك، وتهز رأسها، وتقول:

ـ سمكنا نشويه.. نقليه.. يفضل صاحي.

سمكتي يا بنت لا تبقى صاحية، سمكتي يجب أن تغيب فيّ.

أصابعي متشنّجة، تنغرس في لحم رقبتها، تبحث بلهفة عن أرواحها المهجة، لأستبدل روحي المنهكة، وأسناني تقضم شفتيها، فتنزلقان إلى فمي كحبتي عنب تسبحان في بحر البيرة الذي تفجر دافئًا.

جأرت البنت بخوار بقرة، قبل أن تنتفض انتفاضة مريعة، ثم تجحظ عيناها، ويسكن جسدها.

تهاوي ذراعها تاركًا كتفي، اصطدم بحافة الصّينية، لتسقط على الأرض بصوت مدوٍ، فيتقافز السّمك، ويتنطط.

لم أكن أعرف لماذا شدّتني هذه البوّابة، بالتّحديد، من بين عشرات البوّابات التّاريخية في شارع «المُعِز».

اللافتة النّحاسية، الصّغيرة، المثبّتة على يمينها: «سبيل إسماعيل أغا السّلحدار».

اجتزت البهو، الواسع، المقبّب، وصوت رنين صاجات بائع «عرق سوس» يتردّد بتهويم.

ثمّة درجات حجريّة مرتقية بعد خطوات قليلة، صعدتها متهيّبًا، أنا أمشي في التّاريخ، وللتّاريخ هيبة، فظهر على يساري باب ضيّق، شكله لا يوحي أبدًا بأنّه مدخل لأعظم ما بنى الإنسان!

عبرت الباب لتقابلني عتمة، وسلّم ينحدر، لم تبد لي

نهايته، لكن أضواء نيونيّة خافتة أظهرت لي جبروت ابن «ادم».

ما هذا؟!

أي بشر هؤلاء الذين استطاعوا حفر الأرض، بكل هذا العمق، منذ أكثر من ثلاثمائة سنة؟!

ومن أجل ماذا؟!

سقيا الماء!

ثمانية أعمدة حجرية ضخمة، يرتفع الواحد منها لمسافة أحد عشر مترًا في قلب الأرض، وقباب مهيبة لمخزن المياه الذي يسع أربعين ألف مترًا مكعبًا من المياه، كانت تُنقل كلها في قِرب المياه المحمّلة على أسنمة الجمال من «النّيل».

شهيقي وزفيري يتعاظمان، في هذا البهو الرّهيب، حتّى كأنّهما لـ«ديناصور» يتنفّس، الصّدى.

- «جلبهار».

- «جلبهاااارررررررر».

ما هذه الموسيقى الطّالعة من حنجرة بنت لا أراها؟! وما «جلبهار»؟!

أتلفّت إلى كل النّواحي. و«كركرة» هامسة، صافية، تفيض

حولي. «كركرة» البنت المنحوتة على جدار «الرّامسيوم» في قرية «الأقصر»، سمعتها وهي تقدّم قطعة من الحلوى لأحد ربانها في «المعدّية» التي تزحف على أمواج «النّيل» إلى العرب من غير تعب، وسمعتها وهي تقبّل حملًا صغيرًا ولدته إحدى نعاج قطيعها وهي ترعاه على حواف حقول القصب.

- أنا سيّدة التّوابل.. المشهية.. والمشتهاة.. أنا هنا.

البنت هنا!

- «جلبهاااارررررر».

الصوت يبعث ملائكيًا من هناك، من هذا التّجويف الغارق في العتمة.

تخطو قدماي إلى هناك خطوات مسحور، وعيناي تخترقان العتمة بنظرة الشّرود، الجدار المملوكي العتيد، والتّحويف الضّيق المُعد كسلّم عمودي درجاته محفورة في الصّخر، و...

البنت!

ها هي البنت!

منحوتة على جدار التّجويف، تنظر إلى أعلى، وترفع ذراعها بسمكة رهّاجة، ولا أحد يأخذ سمكتها.

لن يخطفك الموت أبدًا، لأنّك صانعة الحياة، وأنت الخلود.

ألفّها في ملاءة السّرير، وأحملها على كتفي، أفتح النّافذة، كانت فكرتي أن أطير بها إلى شارع «المُعِز».

عندما حاولت تسلّق النّافذة، شعرت بالدّوار، لو حاولت الطيران بها سنسقط سويًّا في أكوام القمامة

لن أتركك وأهرب، الأغبياء سيدفنونك في تراب، بيما مكانك الماء، حيث أصل الحياة.

سبيل «سليمان أغا السّلحدار».

سأضع جسدك خلف الجدران المشبّعة بالماء التّاريخي العظيم، تمامًا خلف صورتك التي ظهرت لي منحوتة في عتمة التّجويف المعد كسلّم.

ها أنا أحملك في جوال على كتفي الذي تدلّت منه حقيبة فيها «إزميل» و«جاكوش»، وفي أحد جيوبها سمكتك الخالدة، أهبط بك درجات سلم لوكاندة «رومانس»، متهيّئًا للفرصة التي ستهبنيها الأقدار كي يمكني الخروج بك إلى الشّارع المزدحم.

قمر السّماء

محبوب

عندما ولدت «سهرة» هذا الولد زغردت. إذ ما إن نزل منها، والنّسوة اللاتي يُولدنها قلن لها إنّه ذكر حتى ابتهجت، ولم تزغرد. لكن ما إن قطعوا حبله السُّري، وأعطوه لها، ونظرت إليه، لم تملك نفسها أن زغردت لأن الولد كان جميلًا. لأن الولد كان أجمل ذكر وُلد في النّجع، منذ وُلد النّجع نفسه وحتّى الآن.

والنّسوة أنفسهن أكّدن هذا، فقالت واحدة:

ـ ما رأت عيناي مثله.

وقالت واحدة:

ـ جميل مثل الملائكة.

وقالت واحدة:

ـ يغار منه القمر!

أمّا التي قطعت حبله السُّري بالموسى المطهَّرة على لهب النّار فقد جرحت الموسى سبَّابتها وهي تنظر في وجهه.

وقالت «نوَّارة» أخته، وقد جلست بجوار أمّها الفرحانة،

تسرح بعينيها في التّقاطيع البريئة الغاية في الجمال:

ـ أخي أحلى ولد.

فقالت «سهرة»، وهي تلقمه ثديها:

ـ ومن شرّ حاسدٍ إذا حسَد.

ثم زغردت ثانيةً، وضمّت الولد بفخديها إلى صدرها، ورفعت ذراعيها إلى السّماء، وقالت:

ـ الحمد لك يا حنّان يا منّان يا وهّاب.. يا من إذا أضمر الوهبة ما تعطّله أسباب.

وزغردت الزّغرودة الثّالثة، ثم رفعت ذراعيها إلى السّماء، وقالت:

ـ يارب اجعل يومه قبل يومي.

كانت تريد أن تقول:

ـ يارب اجعل يومي قبل يومه.

أخطأت من شدة الفرح.

و«نوّارة» انتبهت لخطأ أمّها ففرعت، وقالت:

ـ يا أمي تريدينه يموت قبلك؟!

فحضنت «سهرة» القمر بذراعيها ملتاعة، وقالت:

ـ يقطعني إذا أردت هذا.

قالت «نوّارة» لائمة:

ـ تصبرين عشر سنين.. ثم لمّا يعطيك ما أعطاك تريدينه يموت قبلك؟

فبكت «سهرة»، وضربت بشمالها صدرها، وقالت:

ـ أنا قلت اجعل يومي قبل يومه.

قالت «نوّارة»:

ـ قلتِ اجعل يومه قبل يومي.

فصرخت «سهرة» كما تصرخ على ميّت، وضمّت وليدها إلى صدرها بفخديها، ورفعت ذراعيها، وهتفت:

ـ يارب اجعل دفنتي قبل دفنته.

فضحكت «نوّارة»، وابتسمت «سهرة».

والنسوة خرجن الواحدة تلو الأخرى. وكانت الدُّنيا ليل، والحقول عتمة، لكن القمر، الذي طلع للتو، كان منيرًا، وفي الجو نسمات رائقة.

في البدء كانت الكلمة، وكانت الكلمة عند الرَّجل، فأخذتها

منه المرأة، فصارت الكلمة عند المرأة، قال «محبوب» أبي الولد:

- أسمِّيه «جلال».

وقالت «سهرة»:

- أسمِّيه «قمر السماء».

فقال «محبوب» مستنكرًا:

- اسم غريب وعجيب وطويل! كيف أناديه يا امرأة؟!

فقالت «سهرة»:

- ما اسمك يا رجل؟!

قال:

- تعرفين اسمي يا «سهرة»!

فقالت «سهرة»:

- يا «نوَّارة» أي الأسماء أحلى.. «جلال محبوب».. أم «قمر السماء محبوب»؟!

في الشَّرق شمس طالعة ساطعة، في الشَّرق نخيل سامقة، في الشَّرق حقول وزروع مرحة، وفي الغرب مقابر في صحراء، وترعة مُرَّة تمص «النَّزير» المالح من طين الغيطان، وساتة

راعي الغنم الذي ترك الأحياء وسكن عند الأموات، وقال «محبوب» للراعي:

- أريد كبشين أملحين أعمل بهما عقيقة للولد على سنَّة الله ورسوله.

فقال الراعي بصوت فيه غرغرة ثغاء الخراف:

- الصَّلاة والسَّلام على كامل الأنوار.. وماذا سمَّيت ولدك؟

وضع «محبوب» يده على ظهر كبش، يَجس لحم ظهره، وقال:

- «قمر السَّماء».

الكلمة كانت في البدء، والكلمة كانت عند الرَّجل، كان الرَّجل كلمة، هذا كان في البدء، لمَّا بدا رحم «سهرة» وكأنَّه نصب، لكن ما إن طرح الرَّحم الثَّمرة، حتَّى أخذت المرأة الكلمة، فصارت السَّطوة لها، وسمَّت ولدهما «قمر السَّماء محبوب» بدلًا من «جلال محبوب».

المزامير تعصف بقلوب الرِّجال، والطُّبول تقصف مثل الرعود، والحناجر هادرة، ليلة السُّبوع قمرها مكتمل، ونجومها في آفاق السَّماء وضَّاءة، والطبالي مرصوصة، عليها الصُّحون مصفوفة، ومملوءة بما لذَّ وطاب، والنَّاس

يقعدون، ويأكلون، ويقومون، ويجلسون على «الدّكك» يدخّنون السّجائر والجوزة، و«محبوب» فرحان، حتّى إنّه كان يلم العظم بنفسه من على «الطّبالي» ويرميه للكلاب التي وقفت خلف اللمة تتشمم رائحة الطّبيخ واللحم، و«سهرة» جالسة في سريرها، في حضنها وليدها، تحنيّ وجهه بعلالة من قماش شفّاف، حتّى لا يضايقه الذّباب، ولا تحسده الدّاخلات والخارجات، المهنّئات بالوجوه وبالقلوب حاقدات، و«نوّارة» تعطي أطفالهن الفول السّوداني، والحلوى الملوّنة بالألوان الفاقعة.

وكانت «نوّارة» حزينة!

فلمّا انفضّ السّامر، وهدأت الأحوال، قالت «سهرة»:

- شغّلي يا «نوّارة» إذاعة القرآن الكريم تحضرنا الملائكة.

وقالت «نوّارة»:

- عملتم لي ليلة مثل هذه في يوم سبوعي؟

سكتت «سهرة»، لكن القارئ في الراديو رتّل بالصّوت الخلاّب {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى}، فضربت «نوّارة» «الرّاديو» بفردة من شبشبها وزعقت:

- الأنثى أحلى.

رحم «سهرة» مثل عقد انفرط، ولدت بعد «قمر السّماء»

ستّة ذكور، ما رأت في وجه أحدهم جمالًا، فأحدهم أنفه كبير، وأفطس، لكن «محبوب» فرح به وقال:

- ذكر.

وذهب إلى الراعي الذي ترك الأحياء وسكن عند الأموات، واشترى منه كبشين أملحين، وعمل «عقيقة» مفرحة، وأطعم الكلاب.

وأحدهم عيناه ضيقتان، وفرح به «محبوب» وقال:

- ذكر.

وذهب إلى راعي الغنم الذي ترك الأحياء وسكن عند الأموات، واشترى منه كبشين أملحين، وعمل «عقيقة» صاخبة، وأطعم الكلاب.

وأحدهم بدا مثل المساخيط، لكن «محبوب» قال:

- ذكر.

وذهب إلى الرّاعي الذي ترك الأحياء وسكن عند الأموات، واشترى منه كبشين أملحين، وعمل «عقيقة» بزمّار واحد، وطبّال واحد، وأطعم الكلاب.

وأحدهم نزل بساقين طريّين خاليين من العظام، فتحسسهما «محبوب» وقال:

ـ ذَكَر.

ودهب إلى الرّاعي الذي ترك الأحياء وعاش مع الأموات، واشترى منه نعجتين، وعمل «عقيقة» بزمّار واحد، ومن غير طبل، وكان مهمومًا، فلم يطعم الكلاب.

وأحدهم نزل بعينين مطموستين، خاليتين من النّور، فقال «محبوب»:

ـ ذَكَر.

وذهب إلى راعي الغنم الذي ترك الأحياء وعاش عند الأموات، واشترى منه جديين، وعمل «عقيقة» من غير «طبل» ولا «زمر»، وإنّما قُرئ فيها قرآن، ولما رأى التّذمُّر في عيون الناس قال:

ـ «الزمّارة» حرام يا ولاد الكلب.

واغتاظ، وطار وراء الكلاب.

ولما نزل الأخير برأس مبطّطة، خالية تمامًا من العقل، رفعت «سهرة» ذراعيها، ووجهها، وقلبها، إلى السّماء، وقالت كلمتين ليس لهما ثالث:

ـ يا رب كفى.

وكان الله يسمع لدعاء «سهرة»، ويلبّيه، فكفّ عنها،

وكفّ «محبوب» عن الذّهاب إلى الرّاعي الذي ترك الأحياء وسكن عند الأموات، و«قمر السماء» بلغ سبع سنين، و«نوّارة» عشرين.

«نوّارة» أحبّت «قمر السّماء»، ولم يكن هذا الحب هو حب الأخت لأخيها، وإنّما كان حب الأنثى للذّكر، في الخامسة عشرة من عمرها أحسّت بفورتها، و«قمر السماء» عمره سنتين، فتأخذه من «سهرة»، التي انشغلت بوليدها الثّاني، وتذهب به إلى سريرها، وقبل أن تطفئ النّور تتأمّل فتنة جماله، وهو ينظر إليها ويضحك، تتحسّس شعره السّايح، وهو ينظر إليها ويضحك، وتقبّل خدّيه وهو يضحك، وتمص شفتيه فيندهش ويضحك، ثم تطفئ النّور، وفي الظّلمة تبقى تتحسّس بيدها جسده النّاعم، ولا يهدأ بالها، ولا تخبو نارها، حتّى تدفع يدها إلى الذي كمن بين فخذيه، فيلاعب يدها وتلاعبه، فتسمع ضحكة «قمر السّماء»، وتسمع «برحمة» حمام، ونباح كلاب، وعواء ذئاب، ووشيش الرّيح وهي تخترق سعف النّخيل.

كان هذا منذ زمن، وصار يجري إلى هذا الزّمن، فـ«قمر السّماء» بلغ سبع سنين، و«نوّارة» عشرين.

«ضاحي» وَلد عم «نوّارة»، ويحب «نوّارة» منذ أن رآها صارت شجرة سامقة، طارحة بالفواكه، وقال لأمّه أنّه يريدها، وقالت لأمّه أنّها لا تريده، فاضمحل جسد

«صاحي»، ويبقي في الحياة جسدًا مركونًا، بـه قلـب يتفحّـم بحـب «نـوّارة».

و«نـوّارة» تحـب أخاهـا، لا تحبّـه حـب الأخـت لـلأخ، قلنـا تحبّـه حـب الأنـثى للذّكـر.

وفي البـدء كان الذّكـر، والذّكـر في البـدء كان جلـدة طريّـة لا تتجـاوب مـع اللعـب، لكنّـه مـع طـول المـراودة بـدأ يشـتد، وبعـد خمـس سنين صـار يـضرب في الهـواء حامـلًا ثمـرة فراولـة حمـراء صغـيرة، و«نـوّارة» تحـلّي لياليهـا، تضـع ثمـرة الفراولـة داخـل فمهـا وتمصُّهـا، وثمـرة الفراولـة لا تُعطيهـا عصـيرًا.

راعـي الغنـم تـرك الأحيـاء منـذ عشريـن عامًـا، وراح وعـاش مـع الأمـوات، في هـدوء، وسكينة، مضـت أيّامـه وسـنينه، حتّى ظهـر في إحـدى الليـالي، بـين شـواهد القبـور، شـبح يـصرخ:

ـ «نوّارة».

ثم صار الشبح، كل ليلة، يصرخ في القبور:

ـ «نوّارة»... «نوّارة»... «نوّارة».

ويبكي.

«سـهرة» عاشـت تـرى أولادهـا فتحـزن، الـذي شـكل المسـاخيط، والـذي سـاقاه عجينتـان لا تحملانـه، والـذي لا يـرى، والـذي رأسـه مسـطّح فصـار عبيطًـا، ثـم «نـوّارة» الـتي

لا تريـد مـا تريـده كل البنـات، رجـل وبيـت وعيـال، وقطارهـا يمـضي، ومحطّـة العنوسـة اقتربـت جـدًّا.

كل ليلة، في السّنة الأخيرة، تضرب «سهرة» صدرها، وتئن:

ـ البنت صار عمرها خمسة وثلاثين.

وجلـب الحـزن لـ«سـهرة» السُّـكر، والسُّـكر جلـب لهـا الضّعـف، فصـارت جلـدًا على عظـام، وصـار «محبـوب»، إذا دخـل البيـت، ناحـت زوجـه:

ـ الرّجل يدخل بيته فيفرح وأنا أدخل بيتي فأحزن.

و«سـهرة» تفـرح، فقـط، لمّـا تـرى «قمـر السّـماء»، و«قمـر السّـماء» في عينيـه حـزن.

«نور البصر، وسمع الأذن، حبيبي».

«دقّات قلبي، ودم شراييني، حبيبي».

«نفس صدري، وجريان روحي، حبيبي».

«وحبيـبي أخـي، «قمـر السّـماء» قمـر سمائي، نـور حيـاتي، لا أعـرف كيـف أتزوّجـه، لكـن أعـرف كيـف لا أتـزوّج، وأعـرف كيـف أبقـى لـه».

وتبقـى «نـوّارة» تحـلّي لياليهـا بوتـد دافئ، متهـاه حبّـة فراولـة ضخمـة، إذا أرادت الانطـلاق إلى السّـماء مصّتهـا، وإذا مالـت إلى

الأرض سقت أرضها عصيرًا.

«قمر السّماء» سافر «أبوتيج»، بندر من بنادر محافظة «أسيوط»، راح يؤدي الخدمة العسكريّة، فاهتزّت دنيا «سهرة»، وأظلمت «نوّارة»، لكنّها، في الليالي، كانت تصعد إلى سطوح البيت، فترى القمر كبيرًا وأحمر، واقفًا بعيدًا، فوق بلاد «أبوتيج»، وتسمع صوتًا مبحوحًا، تموّجه نسمات الرّيح، يصرخ:

ـ «نوّارة».. «نوّارة».. «نوّارة».

تسمعه وتبتسم، وتتشوّق إلى ثمرة الفراولة.

شمس المدن قاسية، تصب اللهيب صبًّا، و«قمر السّماء» يتصبّب عرقًا، يقف على باب مديريّة الأمن، يلبس الميري الأسود، ويقبض على بندقيّة آلي، ويراقب السّيارات، والنّاس، والعمائر، عالم غريب لم يره من قبل، عالم لذيذ، وألذ ما فيه البنات العابرات أمامه يتبخترن، فيتخثر قلبُه، وتنتفخ ثمرة الفراولة، ويتذكر أخته «نوّارة»، ويحزن.

إذا مرّت «رباب» أمام مبنى مديريّة الأمن، رقّت شمس «أبو تيج»، وصارت حنونًا.

إذا مرّت «رباب» يتزلزل قلب «قمر السّماء»، وفي المرّة التي رآها ترمقه بنظرة، بينما بسمة شفيفة تتماوج على شفتيها، تاه عقله، وسهر الليالي يسمع من راديو

«التّرانزستور» أغاني «أم كلثوم»، و«عبد الحليم حافظ»، ودموعه تسحّ.

في يوم، مرّت «رباب» أمام مبنى المديريّة، تحمل بين يديها خبزًا، وكان «قمر السماء» يحمل بين يديه السلاح، فرقّت شمس «أبو تيج»، وصارت حنونًا، وتزلزل قلب «قمر السّماء»، فسقط رغيف خبز من يد «رباب»، وسقطت البندقيّة الآلي من يد «قمر السّماء»، وجرى، وأخذ رغيف الخبز من الأرض، وقال:

ـ يا بنت النّاس.. أين بيت أبيك؟

أعطته العنوان، فقال لها:

ـ خذي رغيفك.

قالت:

ـ رغيفي لا يأكله غيرك.

فدارت أرض «أبو تيج»، حتّى إن مبنى المديريّة كاد يسقط، لكن «قمر السّماء» جرى إلى بندقيته، وإلى الرّاديو «التّرانزستور».

عاد «قمر السّماء» في إجازة من الخدمة العسكريّة، طرق البوّابة ففتحتها «نوّارة»، ولمّا رأته أمامها ارتمت عليه تحتضنه، فهالها أنّه دفعها عنه برفق، ودخل، وسمع

صوت أمّه، مبتهجًا، يأتيه من داخل حجرتها:

ـ تعال يا نور عيني.. تعال يا «قمر السّماء».

فدخل حجرتها وارتمى على صدرها، وبكت، وضحكت، ثم بكت، وحمامة ترفرف في فضاء الغرفة، و«نوّارة» تقف على بابها، تنظر، وتملأ عينيها بحسد أخيها، المهيب في بدلته الميري، وتسمع «قمر السماء» يقول لـ «سهرة»:

ـ تريدين الفرح يا أمي؟

وتسمع «سهرة» تقول:

ـ أريد الفرح يا ولدي.

فيقول «قمر السماء» سكّينًا يرشق نصلها في قلب «نوّارة»:

ـ لقيت عروسة في «أبو تيج».. حلوة يا أمي ولا قمر السّماء.

فصرخت «نوّارة»، وذهبت تبكي، و«سهرة» زعقت:

ـ يا بنت الكلب.. تغيرين الآن.

وقالت لـ«قمر السماء»:

ـ بنت ناس؟

ـ بنت ناس.

ـ أقول لـ«محبوب».

وكان صوت «سهرة» واهنًا، وحسدها واهنًا جدًا.

الليل كان أولًا، قبل أن يشق ظلمته النّور، والليل وقت الحياة العجيبة، دخلت «نوّارة» الحجرة التي تنام فيها مع أخيها «قمر السّماء» طوال الزّمن الفائت، وقلعت هدومها، وتمدّدت عريانة تحت ملاءة خفيفة، تنتظر، على نار متأجّجة، ثمرة الفراولة المنتفخة، وتتحسّس، بأطراف أصابعها، نصل سكّين حاد، خبّأتها تحت الوسادة، وهمست وتسرّبت الدّموع المالحة إلى لسانها.

«لا تدق بنت أبوتيج وتد أخي في أرضها أبدًا».

لكن «قمر السّماء» لم يدخل الغرفة

«أم كلثوم» تغنّي على سطح بيت «محبوب»، و«قمر السّماء» تمدّد على جنبه، واتّكأ على ذراعه، يدخّن سيجارة ويسرح، «رباب» تمشّت معه على كورنيش «أبو تيج» وقالت له من الكلام ما سطله، كلام يشبه كلام «أم كلثوم».

شحر النّخيل في الليل له هامات الحكماء، ونسيم الليل قلب «رباب»، و«نوّارة» جلست بجوار أخيها، ومدّت يدها

إلى حيث تختبئ ثمرة الفراولة، لكن «قمر السّماء» أزاح يدها واعتدل، و«نوّارة» همست:

- تريد الزواج يا «قمر»؟! أنا لم أتزوج يا «قمر».

رأى «قمر السّماء» نجمة تومض في دموع «نوّارة»، ورأى «نوارة» تقف، وتمضي نحو هامة من هامات الحكماء، وسمعها تقول:

- ثمرة الفراولة التي مصّها فمي لا يمصّها فمٌ غيري.

وسمع صوتًا، ينوح، يأتي من عند الرّاعي الذي ترك الأحياء وعاش عند الأموات:

- «نوّارة». «نوّارة». «نوّارة».

وسمعته «نوارة» فابتسمت، وومضت نجمة في دموعها.

يا للشّمس! حارّة، إنّها تتأجّج، و«نوّارة» في حديقة الفواكه الملاصقة للبيت، تقف تحت شجرة «الجوافة»، تشير إلى هذا اللاهث في الحقول يلهبه وهج الظّهيرة، لم يصدّق «ضاحي» عينيه، تيبّس في مكانه وكأنّه يرى شبحًا، وركض، مثل فرس، لمّا رأى «نوّارة»، فعلًا، هي التي تشير إليه، قالت له بالهمس المشبوب:

- مجنون يا ضاحي؟!

بكى «ضاحي»، وقعد تحت ساقيها، وقال:

- مجنون يا «نوّارة».

- تريد تعقل؟

- أريد أتزوّجك.

- مهري يا «ضاحي» تروح «أبوتيج» تقتل «قمر السّماء».

«ضاحي» هج في الحقول المتّقدة فرحانًا، وصوته، في عز الحر، فرقع:

- «نوّارة». «نوّارة».. «نوّارة».

بينما الشّمس تومض في دموع «نوّارة».

يا ليل«أبوتيج»، يا «أبوتيج» في الليل، جوهرة متلألئة، و«رباب» واقفة على «الكورنيش» يعاكس النّسيم خصلات «قُصّة» الشّعر المنساب على جبهة مرمريّة، و«قمر السّماء» واقف، أمام «المزلقان»، ينتظر على بَصّ النّار مرور القطار، يريد الطّيران إلى «الكورنيش»، وكان قد اشتاق لرؤية «قُصّة» شعر «رباب»، واشتاق لعيون «رباب»، واشتاق لكلام «رباب» الذي يشبه أغاني «أم كلثوم».

«ما له القطار لا يجي»؟!»

انحنى «قمر السّماء»، واجتاز الذّراع الحديديّة الحائلة

ما بين سكّة القطار وعبور النّاس، القطار قادمًا يهدر، قريبًا جدًّا، لكنه في عيني «قمر السّماء» بدا بعيدًا جدًّا، فاستمر يعبر.

شعر «قمر السّماء» بالزّلزلة، وسمع أصواتًا تزعق، وهدير صاعق، وصوت «ضاحي» يصرخ:

ـ «نوّارة».

قبل أن يشعر بدفعة، مهولة، تضعه أمام جبل الحديد القادم يدردف، ثم طين صفير خارق، و«رباب» عروسة قماش تتقلّب، على رصيف «الكورنيش»، إثر عاصفة، فتسقط في «النّيل».

عندما انتهى عبور القطار كان جسد «قمر السّماء» قد تمزّق، ورأسه تدحرج بعيدًا، وأنوار المحلات، المحيطة بـ«المزلقان»، تومض في عينيه المندهشتين.

يا نهار نجعنا، يا نجعنا الحزين، الخبر جاء والشّمس تُشرق، الخبر جاء و«محبوب» خارج من بوابة البيت، ذاهب إلى زرع أيّامه، هربًا من أحزان سنينه، فضربه الحزن الكبير، سقط تحت جذر البوّابة وهو يشهق، ورأى نخلةً تميل، ورأى طيرًا أبيض يحترق في عين الشّمس، وسمع «نوّارة» تنبح مثل كلب يموت، ورآها تتخبّط في الحوائط مثل ديك مذبوح، وآخر ما سمع، قبل أن يُغمَى عليه،

صوت «سهرة» الممدّدة في السّرير تأكل الأمراض جسدها:

ـ «قمر السّما»! يا قلبي.. يا قلبي.. يا قلبي.

ما له صوت «سهرة» يخرج ممدودًا مترنّما؟!

تنوح، هذه، أم تغنّي؟!

الرّاعي يمضي بغنمه بين القبور، فحاذ على رجلين يحفران قبرًا، والشمس حازت عليهما من قبل لتقف على حبل المغارب، وأثار قطيعُه ترابًا امتزج مع الغبار الصّاعد من الرّمل الذي تقذفه المساحي من قلب القبر إلى ظهر الأرض.

نظر الرّاعي إليهما ومضى، ونظرا إليه وانهمكا في الحفر، لكنّهما سمعاه يسأل، من بعيد:

ـ قبر من تحفران؟

ـ قبر «قمر السّماء محبوب».

فسمعاه يضحك ضحكة رجل سكران، وسمعاه يقول:

ـ تحفران القبور.. وتدفنان الموتى.. وليس لديكما حكمة؟! هذا قبر «سهرة».

ضمّت فخديها إلى صدرها، ورفعت ذراعين عجفاوتين ترتعشان، وقالت لله كلمة، وكان الله يسمع لـ «سهرة»،

فراح وركاها يرتاحان إلى تحت، وذراعاها ينسدلان إلى جنبيها، ورأسها يميل إلى كتفها، وماء برّاق يسيل من ركن شفتيها.

حمامة دخلت الحجرة، وأخذت تطير في فضائها، تطير، تطير من غير تعب.

كنّا نحمل المحفّة التي عليها جسد «سهرة»، وكنّا نحمل مشاعل النّار نُضيء بها الطّريق.

كنّا نحمل، أيضًا، «محبوب»، الذي لم يكن قادرًا على المشي، وعند المنحنى الذي سيؤدّي بنا إلى «الجبّانة» توقّفت، فجأةً، المحفّة عن السّير، وظهرت من غرب النّجع سيارة إسعاف.

السّيارة التي تحمل لحم «قمر السّماء».

عندما اقتربت منّا جدًّا توقّفت، ودارت محفّة «سهرة» حول السّيارة، سمعنا عويلها، قلوبنا توقّفت، عيوننا عملت بحر دموع.

وكما توقف نعش «سهرة» فجأة، كما طاف حول الإسعاف فجأة، تحرك فجأة، وبسرعة اتّجه نحو القبور.

قبر واحد، و«سهرة»، و«قمر السّماء»، على محفّتين ينتظران الدّفن.

«سهرة» تنظر إلى وليدها، تعود بذاكرتها إلى بعيد، تسمع

زغرودتها، وتذكر دعوتها لربّ السّماء:

- اجعل يومه قبل يومي.

«قمر السّماء» ينظر إلى أمّه، ويبتسم، ويسمعها تقول:

- لكن أنا قلت اجعل دفنتي قبل دفنته.

الأكفّ ترفع جثمان «سهرة»، وتهوي به إلى الظّلام، لحم «قمر السماء» في ضوء المشاعل يرتعش.

القمر يتصاعد من خلف هامات النّخيل، والحفّاران شرعا في حفر قبر آخر.

كرم الجميل
نجم الزماني

عربـة «فـورد»، موديـل 1948، تقطـع الطَّريـق الإسـفلتي الواصـل ما بـين قريـتي «الطُّليحـات» و«الجُبـيرات»، التَّابعتـين لمركـز «جهينـة»، محافظـة «سـوهاج»، ورغـم ذلـك، فالعربـة تـبرق بوميـض باهـر لأشـعَّة الشَّـمس المنعكسـة عـلى معدنهـا الملـوَّن باللـون الأخـضر الغامـق، إنَّهـا تحافـظ عـلى بهـاء سـيَّارة خرجـت الآن مـن «الفابريقـة»، أو «الأجانـس»، صـوت محرِّكهـا ناعـم، يهمـس مثـل مـوج بحـر هـادئ، وصـوت «محمَّـد فـوزي» ينسـل، بعبـث طفـولي، مـن «الرَّاديـو» بداخلهـا:

«ذهب الليل.. طلع الفجر.. والعصفور صو صو».

يقفـز، «الجميـل»، خلـف طـارة «الدِّريكسـيون» الواسـعة، حـتَّى إن كرشـه تنحـشر تحـت الطَّـارة، ويزعـق بعلـو صوتـه:

- صاو صاو.

تهـدِّئ السَّـيارة مـن سرعتهـا، فالطَّريـق الإسـفلتي انتهـى، وسـتمضي عـلى طريـق مـترب، وعـر.

«محمد فوزي» يتعابث أكثر:

«شاف القطة قالّها بِش بِش.. قالتلو نَوْ نَوْ».

يقفز «الجميل»، خلف طارة «الدِّريكسيون» الواسعة، حتَّى إن كرشه تنحشر أكثر، وكاد يزلق إلى ما فوق الطَّارة، ويزعق بصوت أعلى:

ـ ناو ناو.

تتمايل السَّيارة، «الفورد»، على الطَّريق الصَّعب، تراب كثيف يتصاعد خلفها، نور الضُّحى يغمر الدُّنيا، عصافير تطير حول السَّيارة قبل أن تفر إلى أشجار، ضخمة، منغرسة في حافَّة ترعة ضيِّقة، ماؤها راكد.

«ماما قالتله سيب القطَّة وخلِّيها ف حالها.. ساب مدرسته ورمى كرَّاسته وراح جرّ شكلها».

ضرب قلب «الدِّريكسيون» بكف يده، فأطلق «كلاكس» السَّيارة صوتًا خاطفًا، وقهقه «الجميل» بعلو صوته.

بيوت «الجُبيرات» تلوح من خلف أشجار النَّخيل، الواقفة تسد الأفق، الحقول مزروعة برسيم يلوِّن الأرض بخضرة بهيجة، تبرق أشعَّة الشَّمس على صاج السَّيارة «الفورد»، وهي تمر، بأناة شديدة، على مطب قاس، و«الجميل» يقهقه بهستيريَّة، بينما ينظر، من خلال النَّافذة التي عن

يساره، إلى ماء التُّرعة الرَّاكد، الذي يبدو، بالكاد، من خلف أعواد الحلفاء الكثيفة.

ها هو «الهويس» يقترب.

«راحت القطَّة محربشة إيده لمَّا مِسك ديلها.. وآدي جزاة اللي ما يسمعشي كلمة ماما تقولها».

يقهقه بعنف، ويخبط قلب «الدِّريكسيون» خبطات متتالية، من فرط انسجامه، فتنطلق آلة التنبيه بصوت حاد، متقطِّع، يقترب «الهويس» أكثر، ليست هناك أشجار، لا أعواد حلفاء، تتَّضح ضفَّة التُّرعة تمامًا. يتضح ماؤها الرَّاكد، أخضر طحلبيًّا.

«ذهب الليل.. طلع الفجر.. والعصفور صو صو صاو صاو.. شاف القطَّة قالّها بس بس قالتله نو نو. ناو ناو».

«الهويس»، كوبري متهرِّئ، أسفله بوابتان حديديَّتان صدئتان، انغلقتا لتتراكم أمامهما أعواد زروع، وعلب بلاستيكيَّة، وأخشاب أثاث محطَّم، وعشرات من الطُّيور النَّافقة، والأسماك الطَّافية ميتة، وجثث حمير وخراف، وجثة منتفخة، جدًّا، لجاموسة استحال سوادها إلى الرَّمادي.

توقَّفت السَّيارة على رأس «الهويس»، فتح «الجميل» بابها، ونزل، خطا نحو ضفَّة التُّرعة خطوات متردِّدة،

محرِّك السَّيارة يهدر هديره النَّاعم، صوت «محمَّد فوزي» يتسلل من «الرَّاديو»، مملوءًا بعبث الطفولة:

ـ «أبلة قالتله فيفي الحلوة زعلت من سوسو.. راح يصالحها وباسها وهيَّ حلفت ما تبوسه».

نظر إلى هذه الأشياء المتراكمة أمام «الهويس»، الرَّائحة العفنة تضج في المكان، ذباب كثير يزن، سد أنفه بكم جلبابه الواسع، ومطَّ رقبته ينظر إلى هذا الرُّكن الذي يصنعه السَّد الإسمنتي مع ضفَّة التّرعة، حيث لفافة، بيضاء، تشرَّبت بالماء، يبدو أعلاها طافيًا، راسمًا طهر جثَّة آدمية لطفل صغير، طفل لا يتعدَّى عمره، على الأكثر، التَّاسعة من عمره.

نظر حوله، الشَّمس في الضُّحى حامية، تصب نيرانًا، الحقول مرميَّة من غير فلَّاحين، «الهويس» ميِّت مثل جثته، نخيل تنتشر في الغيطان كشواهد قبور، بدأ يشعر باختناق، صوت «محمد فوزي» يتسحَّب خارجًا من السَّيارة ذات الباب المفتوح:

«ندر عليًّا لجيلكو واولَّع شمعة من شمعة.. لحد الشَّعر ونص ما يكبر ويروح الجامعه».

اندفع بجسده الفارع، الممتلئ، نحو السَّيارة، يغالب اختناقًا جعل وجهه يتفجَّر بوهج أحمر قان، أصابع يده

تتشبَّث بأسفل فكّه، كأنَّه يحاول نزع قبضة أطبقت، تمامًا، على كامل رقبته، ودموع غزيرة بدأت تطفر من عينيه الجاحظتين.

ركب السَّيارة، أغلق بابها بعنف، ضغط على دوَّاسة «البنزين» بكل ما في ساقه من قوَّة، وهو يرفع قدمه الأخرى من فوق دوَّاسة «الدِّبرياج»، فقفزت السَّيارة، ارتفعت مقدِّمتها كأنَّها ستحلِّق، بينما سحقت العجلتان الخلفيَّتان التُّراب، وهما تنعران.

ارتفع صوته المخنوق بالدُّموع، فخرج مسرسعًا، مثل مفاصل أبواب حديديَّة ثقيلة:

ـ آه يا ولدي.. آه يا «كرم».

ارتفع صوت «محمد فوزي» مرحًا جدًّا، يكاد يضحك:

«ذهب الليل.. طلع الفجر..».

ضغط بكل حمل جسده على دوَّاسة المكابح، فأكلت العجلتان الخلفيَّتان الأرض، ارتفعت مؤخِّرة السَّيارة، بينما مقدمتها انخفضت كأنَّها ستسجد، انفتح بابها بعنف، ونزل «الجميل» يزعق:

ـ آه يا «كرم».. يا «كرم».

ينظر حوله وهو يدير رأسًا محمومًا بالبحث عن شيء في

الأرض.

أخيرًا وجده.

حجر في حجم قبضة اليد، صلد، مليء بالنّتوءات الحادّة.

«محمد فوزي» يغني آخر كلماته:

«قالتله نو نو».

ضرب الحجر الصلد «راديو» السّيارة، فهشّمه تمامًا.

تتقدّم العربة «الفورد» نحو مكانها، تحت شجرة «الشّرو» العملاقة، ببطء يليق بعربة تاريخيّة فخمة، ينزل «الجميل الزّماني» منها، بدا مستعيدًا لرباطة جأشه، يتقدم نحو بوّابة البيت الضّخمة، التي علت عن الأرض بسبع درجات عريضة، لم يكن البيت بيتًا ضخمًا عاديًا، إنّه أشبه بقصر قديم، غامض.

البوّابة زُيّن أعلاها برؤوس محنّطة لخروف، وحمار، وجمل، وكلب، وذئب.

رأس الذّئب بالتّحديد، يطل بشموخ في المنتصف تمامًا، ولأعلى قليلًا، بين هذه الرؤوس.

دفع «الجميل الزّماني» البوّابة، دخل، وانطلق فجأة في

البكاء، وهو يزعق:

- بابا.. بابا.. بابا.

لم يسمع ردًّا، فانطلق إلى الحجرة التي يرقد فيها أبوه، «نجم الزّماني»، على ظهره منذ سنوات، فتح الباب بسرعة متشنّجة، وهو يصرخ:

- بابا.. بابا.

سرير نحاسي ذي أعمدة براقة مزخرفة بدوائر الفضّة، مفروش بالمراتب، والوسائد، المحشوّة بريش النّعام، وجسد «نجم الزّماني» يتمدّد، هزيلًا، في المنتصف، ويغطس في النّعومة، لا يكاد يُرى، استدار رأسه بحركة بطيئة، ينظر إلى «الجميل».

رأى «الجميل» عيني أبيه حمرتين، وماء يسيل من أنفه.

طوّح «الجميل» رأسه بعنف يمينًا وشمالًا، يقول:

- ولدي مرمي عند هويس «الطّرايد».. وسط جتت البهايم يا «نجم».

جلس على أحد الكراسي، يلهث.

وجه «نجم الزّماني» جلد على عظم، الزّمن نحت لحمه، ومصّ «السّكري» دهنه، والتهابات المفاصل المزمنة

صرعته، فألقته في الفراش مسلوب الحركة.

نظر، بعينيه العائمتين، إلى «الجميل»، وهمس:

ـ كيف؟!

ـ أنا رميته هناك من ليلة امبارح.

بدا الانزعاج في عيني «نجم الزّماني»، فأخرج صوتًا واهنًا، حاول أن يجعله حادًّا، فلم يستطع:

ـ قُلت لي إنّك دفنته في الجنينة!

صمت «الجميل الزّماني» لحظات، جحظت فيها عيناه، كان رأسه يتحرك ببطء، كأنّه يحاول تذكُّر حدث قديم، قال مذهولًا:

ـ هِه؟!

همس:

ـ ايوه.. انا دفنته في الجّنينه..

عوى «نجم الزّماني»:

ـ افتكر زين انت عملت ايه! دفنته فِ الجّنينه واللا رميته ف التّرعه؟

مد يده، بهدوء، إلى داخل «سيّالة» جلبابه، أخرج علبة

سجائره «الكليوباترا»، بينما ينظر نظرة نافذة إلى صورة أمّه، المؤطّرة ببرواز مذهّب علاه الغبار، المعلقة على الجدار الذي يقابله، فرآها تنظر إليه بحدّة، ورأى كتفها يتحرّك بحركة ذراعها، وضع «السّيجارة» بين شفتيه، بينما يزداد نظره تركيزًا في صورة أمّه، وقد شعر بأنّها ستُقدم على عمل مخيف.

جاءه صوت «نجم الزّماني» خافتًا، ينوح من بعيد:

ـ دفنت الواد واللا رميته فِ التّرعة؟!

أخرج عود الثّقاب، وأشعل «السّيجارة»، في نفس الوقت الذي ظهرت فيه ذراع أمّه، وقد قبضت، بيد عجفاء، على سكّين لها نصل طويل يلتمع، وعندما رآها تتهيّأ للقفز من الصّورة، هبّ «الجميل» واقفًا، وجرى مرعوبًا إلى باب الغرفة.

دخل غرفة «كرم»، و«السّيجارة» ترتعش بين إصبعي يد تنتفض بانتفاضة كل جسده، هبّ قطٌ كبير من نومته في سرير «كرم»، وقفز إلى الأرض، قبل أن يتسلل هاربًا من باب الغرفة الموارب.

قط رومي أبيض كبير، أحبّه «كرم» جدًّا، وكرهه «الجميل» جدًّا.

قال «الجميل» لـ«كرم» كثيرًا:

- في يوم هادبح القط دَهَ وادفنه في الجنينه.

السَّرير يحمل آثار ما حدث بالأمس، الملاءة مكرمشة إثر معافرة شديدة، وبقعة دم كبيرة امتدَّت أسفل الوسادة، وانكفأ فيها وجه دمية لـ«دبدوب» متوسِّط الحجم، وطرطشات خفيفة لدماء تناثرت على الملاءة كلها.

سكِّين مطبخ كبيرة تلوَّن نصلها بالأحمر، واصطبغ مقبضها بدم ما زال نديًّا، ملقاة بجوار «الكوميدينو»، ينظر إليها «ميكي» المرسوم على ضلفته ضاحكًا، مجموعة من المسدَّسات، وبنادق «الحرز»، ملقاة على الأرض، بجوار دبَّابات، وعساكر أمريكية، تزحف من غير حركة، وفي يدها أسلحة رشَّاشة صامتة.

طرطشات أخرى لدم طازج تناثر على واجهة خزانة الملابس الصَّغيرة، بقع حمراء تلطَّخت بها جدران الحجرة، ولم تفلت صورة «منيرة»، المثبَّتة أعلى الجدار المواجه للسَّرير الصغير، من بقعة دماء، سال منها خيط أحمر، انتهى قبل حافَّة الإطار بقطرة متخثِّرة.

على الأرض، المقابلة للنَّاحية الأخرى من السَّرير، فردتا شبشب نسائي منزلي مُلقتا على جانبيهما في بركة دم واسعة، ملأت الأرضيَّة، وستارة النَّافذة، الصَّغيرة، المطلَّة على

حديقة الفواكه، انفلتت حلقاتها لتتعلق بالكاد أعلى النَّافذة بينما غطس ذيلها في بركة الدَّم الواسعة.

يسحب نفسًا مرتعشًا من «السِّيجارة»، ينظر بعينين مهتزَّتين إلى صورة «منيرة»، التي كانت تنظر إليه بعينين مشفقتين.

ألقى بنصف «السِّيجارة» مشتعلًا فتدحرج حتَّى توقَّف على حدود بركة الدِّماء، رفع ذراعيه وأمسك ببرواز صورة «منيرة» وألقاه بعنف على البلاط، فتفتَّت زجاجه، وتطاير في أنحاء الغرفة.

صرخ بهيستيريَّة:

- قُلتلِك مِيت مرَّة ما تبصليش البصَّه دي.

وعندما نظر إلى صورتها الملقاة تحت قدمه، وجدها تنظر إليه نظرة مستعطفة، فطفرت الدُّموع من عينيه، وبكى.

عندما يبكي «الجميل الزَّماني» لا ينعر، ولا يعوي، وإنَّما يشهق شهيقًا متواصلًا، من غير زفير، ما يشعر معه بالاختناق، فيبدأ فمه ينفتح وينغلق كأنَّه فم سمكة، ويتلوَّن وجهه بلون نار تشتعل في جاز «السُّولار».

ينسل إلى داخل الغرفة مواء قط يتهيأ للهجوم، وصوت

«نجم الزُّماني» الواهن، يزحف متهالكًا:

- يا واد يا «جميل».

لم تكن هناك أية أصوات لشقشقات عصافير، رغم أن الأشجار الكثيفة تحيط بالبيت الضخم!

الرِّيح تعصف بالأشجار، والقمر خلف سحب داكنة، البروق تلتمع فجأة، تضرب الأفق والسَّماء بالرَّعد، تنعكس التماعاتها على رخام البيت الكبير، فيرهج بوهج أبيض، وتتطوَّح الجماجم المعلقة على البوَّابة، فيرخ المطر قطرات البشارة الأولى.

يصرخ «كرم»:

- خلاص يا بابا.

«الجميل» يرفع يده بالسَّوط، ويهوي به، قبل أن يلمس الجسد الصَّغير، ترتمي «منيرة» بجسدها عليه، فتتلقَّى الضَّربة العاتية، تصرخ:

- حرام عليك يا «جميل».. دا ولدك.

- ولدي ما يبكيش.. ولدي قلت له ألف مرَّه ما تبكيش.

تروم العاصفة، يموء القط داخل الغرفة الصَّغيرة، التي انغلق بابها، مواءات عالية، متقطِّعة، يملؤها الرُّعب، يجري

مفروعًا بين قطع الأثاث، محاولًا أن يجد منفذًا للهرب.

قميص نوم «منيرة» يكشف كل لحمها البض، الذي يتلقَّى ضربات السَّوط، فيتشرَّخ شروخًا ترشح بالدِّماء في شكل خطوط قانية، تنتفض بورم سريع.

يجأر «الجميل»:

- قولتله ألف مرَّة الرجال ما يبكوش.

تلهث «منيرة»:

- «كرم» لسه صغير...

يزحف صوت «نجم الزُّماني» إلى الغرفة، مصطحبًا صوت الرَّعد الذي يقلقل صمود الجدران:

- كفايه يا «جميل».. كفايه يا زفت.. يا قطران.

السَّوط يوش ممرقًا صوت «نجم الزُّماني»، يعلو،وينزل، محمومًا بعشق العقاب، يسقط أنين «منيرة» في قاع الصَّمت، ويغالب عواء «الجميل» طبل الرعد:

- يا بُقا راجل من دلوقتي يا بغور في ستِّين داهيه.

أفلتت ضربة، من حصار جسد «منيرة» المستكين فوق جسد «كرم»، لتسقط على وجهه، صرخ بعزمه:

- بابا.

شرخ السَّوط جلد وجه «كرم» طوليًّا، فبدا الوجه وكأنَّه قد انشطر إلى نصفين.

لم يبد أن «الجميل» له عينان تريان، فاستمر في الجلد، وجهه محمرًّا، وجبهته تنز عرقًا، وبدأت شفتا فمه تنفتحان وتنغلقان، فم سمكة تموت على شط.

العربة «الفورد» تتحرَّك على أرض الطَّريق المترب بأناة، «الجميل» يُحدِّق النَّظر في كوبري «الهويس» القادم يتلكَّأ، نَفس الضُّحى القائظ، ونَفس السُّكون المميت.

تقف العربة بجوار «الهويس»، «الجميل» ينزل، يتلفَّت حوله كثيرًا، ثم يتقدَّم ناحية المكان الوطيء من ضفَّة التُّرعة، مكان يمكن للإنسان النُّزول منه إلى الماء بيُسر.

الوضع كما هو، كأن الحياة لم تتحرَّك منذ أسبوع، الماء الأخضر الطُّحلبي، عشرات من جُثث الطُّيور والحيوانات، الجثَّة الصَّغيرة ملفوفة في ملاءتها، التي يبدو أنها بليت، راسية في مكانها.

ينحدر «الجميل»، متساندًا إلى قاعدة «الهويس» الإسمنتية، حتَّى يصل إلى طين لزج يسيب تحت قدميه فيلتصق بفردتي حذائه.

طنين الذُّباب الأزرق، الطَّواف فوق الجثث، يدوِّي، رائحة العفن صارت عطنة، لا تُطاق.

يستند «الجميل»، بذراعيه، إلى الجدار الإسمنتي، يعلو صوته بعواء القيء، تنهمر من عينيه دموع، ينزلق من أنفه مخاط دافق، بطنه ينقلب.

ورغم أنه يفرغ من قيئه، إلَّا أنَّه يستمر في النَّهجان.

الجثَّة الطَّافية أقرب إليه من أي وقت مضى، هاله منظرها، بربشت عيناه، بعصبيَّة، وهما تكادان تخترقان الجثَّة، كانتا تطفحان بعدم التَّصديق.

«هيَّا دي جثَّة كَرَم الزَّماني؟!»

جثَّة متضخِّمة، منفوخة عند الكتفين والرِّدفين، رأسها يغطس تحت الماء، كذلك ساقاها وذراعاها.

يقترب من الجثَّة أكثر، فمه يبدأ في الانفتاح والانغلاق مثل فم السَّمكة المحتضرة، الضِّفة صارت أكثر انحدارًا، فبدأ يتشبَّث بالقاعدة الإسمنتيَّة.

ها هي الجثَّة، أخيرًا، في متناول يده، إنَّها مركونة بعرض التُّرعة، رأسها ناحيته. المنحدر مائل جدًّا، وزلق للغاية، تقرفص بصعوبة وهو يستند بذراعه إلى جدار «الهويس»، محاولًا ألَّا ينزلق، ومد ذراعه الأخرى، المنتهية بيد غليظة

نفرت أصابعها، نحو الجثّة.

إنّها أضخم، كثيرًا، ممّا كانت عليه منذ أسبوع، تحيط بها علب بلاستيكية فارغة، وقطعة قماش ممزّقة، وبوص، وأحذية قديمة.

قبض على جزء من الملاءة ناحية الرّأس، يده ترتعد، فجذبت بعنف المرتعب طرف الملاءة، كانت الملاءة قد تهرّأت تمامًا فتمزّقت، لينكشف له جزء كبير من رأس الجثّة، التي تقلقلت في الماء الآسن، ثمّة شعر أسود، فاحم، يظهر تحت الماء.

مد ذراعه مرّة أخرى، وقبض على جزء كبير من الملاءة، حاول ضم أطرافه كي لا يتمزق، فيتمكّن من سحب الجثّة، وإخراجها.

قدمه اليسرى، التي عليها كل حِمل جسده، انغرست تمامًا في الطّين.

الشّمس بنارها، السّماء بوهجها، الصّمت يُغرق الحقول، النّخيل متيبّسة في فضاء مترهّل.

رغم أنّه جذب الجثّة إليه بسياسة إلّا أن يده انفلتت بقطعة أخرى من الملاءة المتهرّئة، قطعة كبيرة كشف زوالها عن كامل الرّأس، وبدأ شعر أسود، طويل، وكثيف،

في الانتشار، ليطفو معظمه على سطح الماء، مكوّنًا سحابةً من ليل.

صارت حركة شفتيه أكثر سرعة، أقوى جِدّة، جفنا عينيه يهتزّان، وبينما يسحب قدمه، التي انغرست بكاملها في الطّين، بصعوبة شديدة، علا صوت محرّك سيّارة تتقدّم، كان المحرّك يكح، ويعطس، مثل عجوز امتلأ صدره ببلغم ثقيل، ضوضاء شرسة تصدر من تخبُّط مكوّنات السّيارة التي بدت مفكّكة تمامًا.

ضرب الرّعب قلب «الجميل».

اقتربت السّيارة جدًا، وتوقّفت عند «الهويس»، ألصق «الجميل» ظهره بجدار القاعدة الإسمنتيّة، كتم أنفاسه، فأخذ صدغاه في الانتفاخ.

ارتفع صوت أجش هاتفًا:

ـ ياللا يا «زغلول» حرّك نفسك.

صوت «زغلول» وهو يقترب من «الهويس»:

ـ نفسي أنام.. ملعون أبوها شغلانة.

الصوت الأجش يعلو:

ـ عربية «الجميل الزّماني» واقفة تلمع.. عربية ملوكي..

«الفورد» القديم لا يُعلى عليه.

«زغلول» فوق الكوبري، مُتّجهًا مباشرة إلى العجلات الحديديّة الضّخمة، سيديرها حول نفسها بيديه القويّتين، فتنفتح بوّابتا «الهويس»، ليتحرك الماء الرّاكد، قبل أن يتدفق إلى النّاحية الأخرى من التّرعة.

- «الزّمانات» مجانين يا «غرب».

هتف «غرب»:

— يخرب بيت أبوك يا «زغلول».. وطّي صوتك.. لو سمعك «الجميل» بيه حايقصف عمرك برصاصة واحدة من طبنجته.. افتح «الهويس» واخلص.

أدار «زغلول» العجلة الحديديّة، الضّخمة، بصعوبة بالغة، فأطلقت صريرًا يتمازج بين الصّفير والنّعير، وبدأت البوّابتان في الانشقاق.

- يقصف عمري برصاصة؟ كده ببساطة؟! فرّوحة انا ياك؟! «الزّمانات» يا «غرب» طبل أجوف، صوته عالي على فاشوش.. ودعوات المظلومين لازم حاتصيبهم.

القمامة الطّافية على الماء تترك أماكنها. النّعير والصّفير يتقطّعان مع حركة يدي «زغلول» وهو يدير العجلة الحديديّة الضّخمة.

- سلسالهم قرّب يتقطع خالص.. نسلهم ما عادشي... يا روب واحد بيسلم واحد! كلها كام سنة وحاينقرضوا.

كاد «الجميل»، من فرط التصاقه بالقاعدة الإسمنتيّة للهويس، أن يكون صورة محوتة على جدارها.

فُتحت البوّابتان على اتّساعهما، الجثث تتشابك، وتزدحم، فوق سطح الماء المتدفق.

عطس محرّك السّيارة، وهي تزحف مبتعدة تكركب.

نظر «الجميل» إلى الجثّة عارية الرّأس، التي بدأت تترك مكانها متّجهة إلى البوّابة، أطلق العنان لشفتي فمه كي تعاودان حركتهما السريعة بالانفتاح والانغلاق، بسرعة عاد إلى مكانه الأول ليلحق بالجثّة، واستطاع، في آخر لحظة، أن يقبض على الشّعر المتناثر في الماء، ويمنعها من الذّهاب، يجذبها إليه.

تأرجحت عيناه بنظرة مستغربة.

شعر طويل!

إنّه ليس شعر رأس «كرم»! هذا شعر امرأة! شعر...

صدره يهيج، أنّات مخفوقة تنفجر من أنفه، يزوم زومات متقطّعة، الشّعر الطّويل ينفلت من فروة الرّأس الذّائبة، تنطلق الجثّة، بسرعة غريبة، إلى بوّابة «الهويس»،

تندفع إليه اندفاعًا مفاجئًا.

جلس «الجميل» في الأريكة الخلفيّة للعربة «الفورد»، مرتديًا بدلة فخمة، صنعت خصيصا له في أحد أفخم بيوت الأزياء الأوروبيّة، بينما جلست بجواره «منيرة»، وقد ارتدت فستان زفاف رُصّع صدره، وذيله، بأحجار الدُّر والياقوت، وعلى رأسها تاج في شكل زهرة «اللوتس»، مكسو بحبيبات الذّهب.

العربة تمضي في موكب، طويل، من عشرات السّيارات، الفخمة، الأحدث موديل.

الليل، القمر المكتمل يسبح في سماء سوداء، تامّة الصفاء، كُسيت بنجوم برّاقة، وطابور السّيارات يتهادى في المرحلة الأخيرة من الطّريق، وبدا قصر «الزّمانات» يقترب مُزيّنًا بأضواء مُلوّنة خفّاقة.

«نجم الزّماني» يقود العربة «الفورد» بنفسه، و«منيرة» قمر يضوي، يجلس في عربة تجري على الأرض، أمالت رأسها تخطف نظرة إلى «الجميل»، فاستغربت هذه الحركة التي يعملها بفمه وصدغيه، والتي تشبه حالة سمكة تموت.

- مالك؟!

أدار وجهه إليها خطفًا، فرأته محمرًا جدًّا. همس متسائلًا:

- مالي؟!

ابتسمت، وهمست هي الأخرى بصوت مداعب:

- بتعمل ببوقّك حركات سمكة بتموت.

ارتفعت ضحكة «نجم الزّماني»، ضحكة مُصطنعة، ليست طالعة من بساتين القلب، لكنّها تشع بالمقصود منها، إنقاذ موقف.

- انتو بتعيشو دلوقتي أحلى ليالي العُمر.. بصّي يا «منيرة».. عاوز حفيد بمنتهى السرعة.. مستقبل «الزّمانات» بين إيديكي يا بنتّي.

وضحك.

- مش باين يا عمي إن «الجميل بك الزّماني» بيعيش أجمل ليالي العمر.. بالعكس خالص.. دا باين عليه إنه بيعيش أصعب أزمة في حياته.

وضحكت ضحكة رقيقة، قبل أن ترى ما أذهلها. ذراع «الجميل» تنطلق من جواره، مثل أفعى غليظة، ليرتطم الكف بوجهها في صفعة قويّة أسقطت التّاج المذهّب من فوق رأسها، ورسمت، على خدّها، أربعة خطوط دمويّة نافرة.

بوغت «نجم الزّماني» فانحرفت عجلة القيادة قليلًا،

لكنّه تمكّن من إعادتها إلى مكانها بسرعة وهو يصرخ:

- بتعمل إيه يا مجنون؟!

زعق «الجميل» بكل صوته:

- أنا سمكه ميّتة؟!

- بتضحك معاك! بتهزّر!

الأشجار المزيّنة باللمبات الملوّنة، واجهة القصر تشع أضواءً هادئة، تومض وتحبو، ورأس الذّئب، المحنّط بين رؤوس الحيوانات المعلّقة أعلى البوّابة، يطل الموت من مآقيها الزجاجيّة.

انحنى «الجميل» داخل العربة، والتقط التّاج المذهب، ووضعه على رأس «منيرة»، التي انهالت دموعها من غير صوت، التصق «الجميل» بها، أدار جذعه ناحيتها وأخذ يمسح دموعها بإبهاميه الغليظتين، يشهق، فمه ينفتح وينغلق، أزاح بسبّابته ذقن «منيرة»، يدفعها كي تنظر إلى ما فوق نافذة باب العربة، فرأت قلبًا مرسومًا برقائق الذّهب والفضّة، بداخله صورة زيتيّة لوجه «منيرة» مرسومة بمهارة، بينما يحيط بكل القلب اسم «الجميل الزّماني».

رأت «منيرة» هذا جيّدًا، رغم أنّها رأته من خلف بركة دموع، لم يفلح إبهام «الجميل» في تجفيفها.

الجثّة تتهادى في الماء بحكمة، في وسط التّرعة تمامًا، حيث لا عوائق يمكنها تعطيل تهاديها، لم يكن هناك ما يجبرها على التوقّف، ولم يكن هناك ما يشير إلى أنها ستتوقّف قريبًا، فلقد انطلقت من تحت «الهويس» قبل الظّهر بقليل، وها هو أذان العصر يعلو من الآفاق البعيدة، سارحًا فوق الحقول، متكاسلًا من فرط سخونة وهج الشّمس.

الجثّة تسبح بأناة، رأسها، الذي تجرّدت فروته من الشّعر الطّويل، يتّجه مع الماء إلى الغرب، حيث تتّجه شمس العصاري، و«الجميل» يقود عربته أيضًا بحكمة، على الطّريق المترب، غير الممهّد، محاذيًا التّرعة التي عاد ماؤها إلى زرقته، عيناه تخطفان، من لحظة إلى أخرى، نظرات مُتقصّصة إلى الجثّة السّارحة.

شجرة «سنط»، عملاقة، تفرش أغصانها فتغطّي مجرى التّرعة، تقترب.

ابتداءً من هذه الشّجرة ستدخل التّرعة في زمام أراضي «الزّمانات».

ما الذي حدث ليجعل الجثّة السّابحة الهوينى، في منتصف التّرعة، تغير مسارها، لتتّجه إلى الضفّة؟! إلى حيث أصل جذع شجرة «السّنط» المائلة.....

ـ ياااه.. الشَّجرة دي نوعها إيه؟!

ـ شجرة «سُنط».

ـ شكلها مرعب.. الشُّوك مالي كل أغصانها!

ـ مـن وجهـة نظـري دي أعظـم شـجرة في العالـم.. عشـان مـا نتسـلّمش نفسـها بسـهولة لأي حـد يعـوز يطلـع أغصانهـا.

ـ والشَّجرة دي ثمرتها إيه؟!

قطـف «الجميـل» بطـرف سبّابته سـائلًا لزجًـا، سـميكًا، بـزَّ مـن شرخ صغـير في جذعهـا.

ـ الصَّمغ.

ثم وضع سبّابته في فمه ومصَّها. قال:

ـ طعمه لذيذ جدًّا.

ضحكت «منيرة» وهي تقول:

ـ الصَّمغ طعمه لذيذ؟!

هالهـا أن عيـني «الجميـل» امتلأتـا فجـأة بالدمـوع، كانتـا تنظـران إلى الأرض المعشوشـبة أسـفل أغصـان الشـجرة، كان هنـاك عصفـور ميـت، مسـتلق عـلى جانبـه متيبسًـا....

ترسـو الجثّـة برفـق تحـت جـذع الشّـجرة الغاطـس في الميـاه،

يخـرج «الجميـل» مـن العربـة ليتَّجـه إلى مـكان الجثـة.

صوت «منيرة» المشفق يتردَّد صداه في عقله:

ـ مالك يا «جميل»؟!

ـ الطُّيـور كائنـات مسكينة.. لمَّـا تمـوت مـا نتلاقيش حـد يدفنهـا.

ـ طيب دا موضوع يستاهل إنَّك تبكي كدا؟!

مسـح دموعـه بإبهاميـه، مـال إلى الأرض والتقـط العصفـور الميِّـت، كان قـد تحشّـب تمامًـا، وثمّـة نمـل، لا يـكاد يُـرى، يسـعى بـين ريشـه، وحـول منقـاره وعينيـه المغلقتـين.

ـ الطيـور جميلـة يـا «منيره».. حـتَّى وهيَّـا ميِّتـه.. بـصِّي في عينيـه.. مقفولـين خالـص.. لكـن البـني آدم الميِّـت بيحلـق بعينيـه..

رسـت الجثّـة، و«الجميـل» ينحـدر مـع الضفّـة الزَّلقـة مسـتندًا إلى جـذع شـجرة «السّـنط»، حـشرات تتعلّـق بظهـر كفِّـه، يواصـل الانحـدار ببطء شـديد، يقـترب جـدًّا مـن الجثّـة، ينحـني مـادًّا ذراعيـه، يخـترق بهمـا المـاء إلى حيـث الـرَّأس الغـارق، يحيطـه بكفَّيـه، ويجـذب الجثّـة إليـه، فيتمكّـن مـن إخـراج نصفهـا الأعـلى، ثـم رفـع الـرأس إليـه، ونظـر في الوجـه.

حتَّى الرِّيح!

خلت الدُّنيا من كل متحرِّك حتَّى الرِّيح، الدُّنيا لوحة ميتة، والشَّمس تقف في مغارب الحزن، لا تتحرَّك نحو غروب الفناء، أسراب الغربان، التي عادة تطير في أواخر نور النَّهار، عائدة إلى شواشي النَّخيل، ها هي تطير في أماكنها، تعلَّقت في السَّماء من غير حركة، فقط أجنحة ممدودة من غير خفق، ومن غير سقوط، لوحة تبقى تنفث الآلام.....

جعر «الجميل» بصوت لم يخرج منه من قبل:

ـ عاااا!!

ودفع بجثّته إلى التّرعة، قبل أن يستدير، بكل ما يملك من طاقة، محاولًا تسلُّق الصفّة بسرعة هيستيريَّة.

ينزلق حتَّى تغطس قدماه في الماء، فيتشبَّث بأصابعه في الطِّين، ويصرخ:

ـ عاااا.. عااااااا.

الشَّمك أكل وجه «منيرة»، فلم يتبق منه إلَّا بقايا لحم متهرِّئ التصق بعظام الجمجمة.

بالتَّأكيد أكل السَّمك رقبتها، أكل صدرها ونهديها، أحشاء بطنها، فخذيها، كل ما كان غاطسًا من جسدها تحت الماء أكله السَّمك.

«لا يمكن تكون دي منيره»

استطاع الصُّعود إلى الطَّريق، لاهثًا مثل كلب خائف، نفسه ينفسح ويتعلق بسرعة عجيبة، جلس خلف عجلة القيادة، وأدار محرِّك السَّيارة لتنطلق متقافزةً على الطَّريق الوعر، فيتصاعد الغبار إلى الهواء الثَّقيل.

«مش ممكن تكون منيرة».

الشُّروق أجمل الأوقات، وأجمل شروق هو الذي تتجلَّى فيه الشَّمس من فوق سن الجبل البعيد، تطلع على حقول ما لها حد اتِّساع، ترفرف في سمائها طيور فرحة نحو الأزرق.

«الجميل الرماني» يعشق الشُّروق، يقف كل صباح في سطح القصر، ينظر نحو الشَّمس الطَّالعة تزهزه، ويملأ صدره بعبق الغيطان، يراقب الطُّيور التي تمرق في الفضاء تمرح، فينتشي، ويفرد ذراعيه متعامدتين كالمصلوب، ويحركهما إلى فوق وتحت، يريد الطيران...

اليوم، طيور الغربان ليست فرحة، بل حزينة، تحلِّق في دوائر ضيِّقة وتنعق، بينما طيور غربان أخرى قادمة من بعيد، تنعق أيضًا، متَّجهة نحو الدَّوائر المحلِّقة.

يقف «كرم» مختبئًا خلف فازة ورد، ضخمة، تهشَّمت حافَّتها، وبهتت ألوان زخرفتها، ينظر إلى الغربان، وإلى أبيه.

«الجميل» ينظر إلى الطّيور السّوداء المحلّقة، بوجه مقلوب، هتف:

- جنازة غِربان.. مات غراب.

هرول ناحية الدّرج، واختفى في نزوله السّريع، تقدّم «كرم» ناحية سور السّطح، ونظر إلى أسفل، رأى أباه، «الجميل»، يخرج من بوّابة البيت، يهبط الدّرجات الواسعة أمامها، وينطلق في الحقول باتّجاه البؤرة التي ترفرف فوقها الغربان النّاعقة.

التقط «الجميل» الغراب الميّت، واتّجه به إلى بوّابة حديقة أشجار الفاكهة.

شجر «المانجو» ضخم، تتشابك أغصانه في الأعالي، شجر «الجوافة» سامق، شجر «البرتقال» مكتنز بأغصانه المرصّعة بالثّمار النّاضجة في لون الذّهب، إنّها غابة من الجذوع المغروسة في الأرض، انتشرت بينها أكوام من ثرى نبتت فيها الحشائش، وأكوام من ثرى حديث وُضعت حديثًا، قبور الطيور، قبور كثيرة رُصّت بعناية في خطوط مستقيمة، ونبتت حولها أعواد الرّياحين.

«الجميل» منهمك في حفر قبر بفأس صغيرة، يلهث، وينشج، فمه ينفتح، وينغلق، عيناه تسحّان دموعًا، و«كرم» يرقب أباه من خلف جذع شجرة، بينما يتمسّح، في ساقيه،

قطّه الأبيض، وهو ينظر، باهتمام، ناحية الجسد الآدمي الضّخم، الذي يحفر الأرض وهو يرتجّ.

شمس الصّباح تطلع مختبئةً وراء الأغصان الكثيفة، والغراب الميّت يغطس في الغياهب، ثم تزيح الأصابع الغليظة الثّرى، تُعيده إلى حيث كان.

الغربان تحوّم في السّماء، نعيقها عال، واليدان الضّخمتان تسوّيان كومة التّراب في شكل هرميّ، تنظر العينان الدّامعتان إلى القبر.

إنّه في مكانه، تمامًا، على امتداد الصّف.

السّوط السّوداني نُقع في الزّيت طويلًا، عندما يهوي على جلد الإنسان يمزّقه، تمزّق ظهرُ «منيرة»، التي ألقت جسدها فوق جسد «كرم»، الشّرخ، في جلد وجه «كرم»، سحّ دمًا، صوت «نجم الزّماني»، الملتاع، يغالب الرّعد، يسيل زاحفًا من أسفل باب غرفته الموصد:

- كفاية يا «جميل».

يزعق، «الجميل»، وهو يهوي بسوطه:

- يبكي؟! قولتله ألف مرّة ما تبكيش. الرّجالة ما يبكوش.

همست «منيرة» وهي تجمع آخر قوتها:

- «كرم» بيبكي مِ الخوف.. لكن انت بتبكي لأسباب تافهة.

عصف السّوط بعنقها، فماءت مثل قط يختنق، مواءً طويلًا مكبوتًا.

- أنا بابكي لأسباب تافهة؟! أنا بابكي يا سافلة؟!

جُن السّوط، يضرب من غير وعي، القط الأبيض ينكمش تحت منضدة صغيرة في ركن الغرفة، في عينيه رعب.

يصرخ «الجميل»:

- أنا ما بكيتش يوم ما ماتت امّي.. أبكي كيف!

همدا، فقط يرتعشان رعشات خفيفة، همست «منيرة» من بين مشارف الموت:

- انت مجنون يا «جميل».

ارتطمت الكلمة بأذني «الجميل» ارتطامًا عنيفًا أذهله.

- أنا مجنون؟

ألقى بالسوط جانبًا:

- أنا مجنون؟

استدار إلى باب الغرفة، فتحه بعنف، واندفع خارجًا، فاندفع القط خلفه هاربًا. كان صوت «الجميل» يغيب في

هدير العاصفة، وهو يزعق:

- أنا مجنون؟

وصدح صوته، فجأةً، عندما عاد ودخل الغرفة:

- أنا مجنون؟

يده اليُمنى تقبض على سكين ذات نصل، طويل، بالغ الرّهافة، رفعها إلى أعلى قبل أن يهوي بها غارسًا النّصل، بكل قوته، في ظهر «منيرة»، التي لم يبد جسدها أيّ حركة، سوى رعشة خفيفة.

- أنا مجنون؟!

نزع السّكين، وغرسه، عدّة مرّات في الجسد الرّاكد، ثم سحبه وقد تفجّرت منه الدّماء.

وبينما الجسد يأخذ طريقه، ساقطًا من فوق السّرير إلى الأرض، تعلّقت يد «منيرة» بأطراف السّتارة، فنزعتها من ماسورتها.

وسقط الجسد على الأرض، فانكشف جسد «كرم».

سكون مفاجئ عمر الأرجاء، رحلت العاصفة، وتجلّى صوت «نجم الزّماني»، قادمًا من غرفته، منتحبًا بالعجز:

- يا «جميل». يا «جميل».

القط يتلصّص بنظراته من فرجة باب حجرة «كرم»، ينظر إلى اليد الغليظة وهي تعلو وتهوي بسكّين تخضّب بالدّماء.

- «هيّا منيرة!»

ينظر، بفزع، من فوق الضّفة، إلى الجثّة المشوّهة الرّاسية تحت جذع شجرة «السّنط».

يتنفّس بصعوبة، وهو ينحدر ببطء، حتّى أمكنه الوصول إلى الماء، مدّ ذراعين مرتعشتين، وقبض على جانبي الرّأس المتهرّئ، ثم سحب الجثّة

لم يكن سهلًا، بالنّسبة لرجل ضخم مرتبك، أن يسحب جثّة متحلّلة ويصعد بها منحدر الضّفة، لقد تعب كثيرًا، وطويلًا، ونخ، وعوى، وتقيّأ، فطارت الشّمس إلى خلف سن جبل الغروب، وأخيرًا تمكّن من وضع الجثّة على الأريكة الخلفيّة داخل العربة «الفورد»، رأسها ناحية النّافذة، التي تعلوها نقشة القلب المذهّب، والمفضّض، محيطًا بوجه «منيرة» الباهي.

وقف ينظر إلى الجثّتين، ثابتًا، راسخًا، لا ينشج، لا ينهج، فمُه مُغلق تمامًا.

«منيرة» مُلقاة على بطنها، رأسها لُفّ في نهاية السّتارة، فلم ير عينيها، لكن عيني «كرم» كانتا مبحلقتين، تنظران إليه نظرة حائرة، ومليئة بالألم.

ألقى السّكين فاستقرت عند «الكوميدينو»، فأخذ «ميكي»، المرسوم على صلفته، يحملق فيها مبتسمًا. وصوت «نجم الزّماني» بُح، فاستسلم لليأس من أيّ إجابة:

- يا «جميل».. يا «جميل».. عملت إيه يا واد؟

كبار عائلة «الزّمانات»، على مر الزّمان، يطلّون من براويزهم المعلّقة بتوالٍ مرتّب على جدران حجرة «نجم الزّماني»، في عيونهم هلع اللحظة.

ما زال هناك، على الجدران، مُتّسع لبراويز أخرى.

«نجم»، الطّاعن في السن والأمراض، كسيح المصائب، تدلّى من سريره العالي، فانحبط على الأرض مثل جذع خاوٍ، يزعق بصوته المتفتّت:

- يا «جميل».

يجر، بذراعيه النحيلتين، جسده الميّت نحو الباب، ونظرات الوجوه، الملتصقة داخل لوحات البراويز تحثّه.

«لا بُد من ديمومة «الزّمانات»، لا يجب أن يتوقّف رص البراويز».

فُتح باب الحجرة، دخل «الجميل» وقد تخضَّب بالدَّم الأحمر، نظر «نجم الزِّماني» إليه، فتوقَّف عن الزَّحف مشدوهًا، قال بصوته الكسيح:

- انت عملت إيه؟

دار «الجميل» برأسه، تأرجح جسده، وبدا أنَّه سيسقط، فجلس على الأرض، بجوار أبيه، وأسند ظهره إلى مقعد أريكة عتيقة.

زحف «نجم الزِّماني»، مقتربًا أكثر من «الجميل»، وعندما صار لصيقًا به، مدَّ يده وقبض على عِب جلباب «الجميل»:

- عملت إيه؟!

شعر بلزوجة تحت قبضة يده، فأفلت عِب الجلباب المتشبِّع بالدِّماء السَّاخنة، ونظر في كفِّه، وسأل بصوت يموت:

- عملت إيه يا فقري؟!

عيون الصُّور، في البراويز، متلهِّفة بالقلق، والخوف، تنتظر إجابة.

- بيبكي. دائمًا يبكي.. قولتله ألف مرَّة الرِّجالة ما عايبكوش.. قولتله ألف مرة يا تعيش راجل يا تموت.

ونظر في عيني «نجم» الغائمتين، قال:

- مات.

- قتلته؟!

اندكَّ صدر «نجم الزِّماني» بالأرض، وهو يقذف بيديه مثل كلَّابين نحو وجه «جميل»، ثم ينكت أظافره في لحم وجهه، ويحرثه.

صرخ «الجميل» وهو يهبُّ واقفًا، وقد وضع كفَّيه على وجهه الممزَّق، وجرى ناحية الباب.

وكبار «الزِّمانات»، في البراويز، ارتعشت أفواههم بالأنين، مثل حمائم «تبرجم» في سفح جبل شاهق، يُصخِّم الصَّدى.

قبور الطُّيور.

آخر قبر، في الصَّف، لأحد طيور الإوز العراقي، قبر ضخم، رُصت فوقه كومة ثرى هرميَّة، وعالية

- لا.. دا قبر «كرم». مش قبر وز عراقي. أنا فاكر إنِّي دفنته هنا.

إنَّه يحفر قبرًا كبيرًا.

- معلهش يا طيوري.. المرة دي هادفن بيباتكم غزالة.

العربة «الفورد» تقف بالقرب من بوّابة الحديقة، موسيقى مرحة تنطلق من «الرّاديو» العتيق، وحدُّ شفرة الفأس يأكل الأرض، جثّة «منيرة» مقلوبة على وجهها ساكنة تمامًا، تنتظر القادم، يسال منها الماء، يبلّل الثّرى.

صدح صوت «محمد فوزي»:

«ماما.. زمانها جايّة.. جايّة.. بعد شويّة.. جايبة لعب وحاجات».

قبر، عميق، يضرب في الأرض.

- «جايبة.. معاها شنطة.. فيها وزّة وبطّة.. بتقول واك واك وااك».

هتف «الجميل» وهو يشتد في الحفر:

- واك واااك.

موتور العربة «الفورد» يهدر ناعمًا، مثل نسمة صيف.

مثل هفهفة حرير....

حدثنا سمير الذهاني

..... وذُكـر الخـبر، كامـلًا، في كتـاب «اللبيـب في مـا كان في الدُّنيـا مـن أعاجيـب» لـ«الأرزوقي»، لكـنِّي رأيـت أن أبحـث عنـه في بعـض الكتـب الأخرى، المشـهورة في الأمّهـات، وذلـك لداعيـين اعتلجـا في صـدري، أولهمـا. لِمَـا رأيـت مـن خلـلٍ في سـند الرِّواية عنـد صاحبنـا؛ ففيهـا من المدلِّسين «حاجـب بـن خليـل». وفيهـا مـن قُـدِح في قدرتـه على التَّحمُّل بسـبب النِّسيان النَّاتـج عـن التَّقـدُّم في العُمـر، وهـو «عمـرو بـن الحجـازي». وفيهـا «رافـع بـن سـليم»، وهـو مـن الكذَّابـين المشـهورين. وثانيهمـا: لِمَـا يكـون قـد ذُكـر، في هـذه الكتـب، مـن زيـادة في هـذا الخبر، أو مـا جـرى عليـه مـن نقصـان

ولقـد وجـدت أن الأمـر يسـتحق مـا يُبذل فيـه مـن كـدٍّ ونَصَـب، فهـذا الخبر، أو تلك الحادثـة، هـي عجيبـة العجائـب إن صحَّـت، ولقـد قـرأت كتبًـا بكاملهـا، مـن ذوات المجلَّـدات المستعظمة، مثـل «البـارق في ذكـر الغريـب المـارق» لعَلَـم زمانـه، وذُرَّة أوانـه، «المسـتحلي»، و«بدائـع الزمـان» للعلَّامـة «الكوثـري»، و«عجائـب المصائـب» لبحـر العلـوم «الدقـلي»،

بحثًا ولو عن نذر يسير من هذا الخبر، لكن بعد الجهد، الجهيد، لا أعثر على بُغيتي.

ورغم ما كان يصيبني من إحباط، إلا أنني كنت آخذ النّشاط، فأقلّب في الكتب بهمّة، وأصل منها إلى القمّة، فلا أصيب إلا الخيبة، فقررت أن أذكر الخبر الذي في «اللبيب»، مكتفيًا به، والعهدة على صاحبه، غفر الله لنا وله.

يقول «الأزروقي». أخبرنا «حسين» بن «غلمة» قال. أخبرنا «جاسر» بن «سالم» البلوي، أخبرنا «حاجب» بن «خليل» عن «الشدّاد» بن «عنيمة» أنّه قال: قال «عمرو» بن «الحجاري»: حدثنا «سمير» الزّهراني أن امرأة، حسناء، كانت في قاهرة «مصر» المحروسة، تقف كل صباح في شرفة بيتها، خلف شبابيك يُقال لها الـ«مشربيّات»، ترقّب الرّجال وهم يمرّون في السّكّة أمام بيتها، فإذا أعجبتها هيئة رجل ما، وتأكّدت أنّه ليس من أهل الحي، ألقت أمامه زهرة من ورود تزرعها في أصص من فخّار، تضعها على حواف الشُّرفة، فينظر الرّجل إلى أعلى، فتُطل عليه من طاقة تفتحها في المشربية، فيرى من حُسنها ما يجعله يسطل، ويرى من عينها غمزًا يدفعه كي يدخل من باب البيت ليصعد إليها، فيجدها تنتظره، وتسحبه من يده إلى مخدعها، وتتخفّف من ملابسها، حتّى لكأنّها من العري كيوم ولدتها أمّها، وتأتي من الحركات، والتأوّهات، ما يجعل صاحبنا مثل

كتلة لهب، حتّى إذا انفلت عياره، وأراد الهجوم عليها لينال منها وطره، اعتدلت واعتدل كلامها، وتكلّمت بمنتهى الجد، وهي تشير إلى إناء ضخم، من خشب، يقال له «برميل»، نُعتّق فيه الخمر، وتقول. «إذا كنت تريد اللعب الآن في حماي، فأتِ لي بأسورتي التي سقطت في آنية الدنان»

وعندما يكشف الرّجل غطاء الـ«برميل»، يكتشف ما هو مهول، الأسورة ساقطة في القعر، وحولها حيّات تسعى، فلا يستطيع المسكين الإتيان بالإسورة، فيمضي وقد انكسر حاله أشد كسرة. ثم لا يستطيع أن يتحدّث بين النّاس بما حصل، حياءً ممّا قد يتهمونه به من جبن ووجل، فاختبأ أمر المرأة، ولم يعرف بخبرها غير من دخلوا عليها ولهانين، وخرجوا مكسورين.

امرأة غاية في الجمال، ترتدي قميصًا، شفّافًا، يفضح ثنيّات الفتنة من جسدها الميّاس، تجلس على سريرها العالي، المعمول من النّحاس السدفي، ذي «المرتبة» و«الوسائد» المحشوّة بريش النّعام، عيناها محشوّتان بحزن، وتنظران نحو «برميل» كبير من خشب، مثل البراميل التي يُخلّل فيها «اللفت» و«الجزر»، رموش عينيها ترتعش، وفي بؤبؤ العين تتراقص ذبالة لهب ينطلق من مصباح فضّي عتيق كأفعى تتلوّى.

تهمس لنفسها بحرقة: «لن أدفع رُوحي، وجسدي، إلّا

لرجل يدفع لي زوجه، وجسده».

وتهرب منها تنهيدة ملتاعة.

البيوت تتلاصق، وترتمي على بعضها، حتّى ليكاد الطريق بين صفّيهما يتلاشى، وحتّى تكاد ألّا تجد أشعة الشّمس مسلكًا إليه، البيوت مزوّقة بالمشربيّات، وبآيات قرآنيّة منحوتة على أبوابها الكبيرة، وبأبيات من شعر الحِكَم منحوتة على أفاريز شبابيكها الواسعة، والزّقاق تفوح منه روائح ما يبيعه العطّارون من «مسك»، و«حبّهان»، و«قرنفل»، و«مستكة»، تمتزج بروائح «الكبدة» المقليّة، و«الممبار» الذي يُحمّر في السّمن، وقطع «الكرشة» التي تُطهى في الأواني النّحاسية الكبيرة، هذه الأطعمة التي تجهّزها المطاعم الرّخيصة، وثمّة روائح، أخرى، مقزّزة لروث «الحمير»، و«البغال»، التي يحلو لها أن تفك زنقتها وهي تمر في الزّقاق، وروائح دخان يتصاعد من «التّراجيل» التي يشد أنفاسها معلمو «الدّكاكين» و«الورش»، وقد اختلطت أصوات الدّق بالمطارق الثقيلة على المعادن المتوهّجة بالنّار، برغاء «الجمال» العابرة وقد حُمّلت بقِرَب الماء الضّخام، لتفرغها في مخازن مياه الأسبلة.

ودخل «المسمط» رجلٌ فتيّ، وجهه يحمل بهاء الجمال، وإن كان كتفه يحمل عصا غليطة، تعلّقت بها صرّة ضخمة، تعبّأت بأنواع من القماش الحريمي، وكانت المرأة تراقبه،

وقد جهّزت زهرتها.

عندما خرج بائع الأقمشة من «المسمط»، خطا خطوات قليلة، ثم سقطت أمامه زهرة، فانحنى جسده ليمسكها بيده، بينما اشرأب قلبه ينظر إلى فوق، ووحده، من بين كل الرّجال الذين نظروا إلى أعلى، الذي لم ير امرأة بارعة الحسن والجمال، وإنّما رأى حبًّا يطل عليه من أرقّ طاقة، في أحلى «مشربية»، فوضع الزهرة في «سيّالة» جلبابه، ومضى في طريقه، ولم يدخل بيت المرأة.

لم يُكتب لأمر من أمور الدُّنيا تمام، ولا بُد من نقص ولو في الكمال، فقال الولد الذي في عصّارة الزّيوت لمعلمه:

- يا معلّمي.. بيّاع القماش أخد الوردة.. ولم يدخل بيت الشّرموطة!

فقال المعلّم، بعد أن شدّ نفسًا طويلًا من نارجيلته:

- بيّاع القماش رجل محترم.. والشّرموطة في يوم من الأيام ستنفضح.. وسينفضح معها الحي.

نفخ الولد في الفحم الملتهب على حجر المعسّل، وقال:

- وقاعد ساكت ليه يا معلّم الحتّة؟!

دك المعلّم الولد بقدمه:

- ومين قال لك ساكتين؟! أنا هاصيدها مع أول كلب يدخل خرابتها النّهارده.

حقول الزّرع معتمه ومبسطة، وأشجار نخيل مشتّتة تشق مثل أشباح، لكن عناقيد النّور الكهربا تشكّلت، في سماء وسعاية بحري الكفر، مثل شبكة من خيوط العنكبوت، والأضواء تخبط في جدران البيوت فتمصها الشّقوق، وتمصها شبابيك ضيّقة أطلّت منها وجوه نساء وبنات، يطرن بفرح نحو «الصّوان» الواسع، الذي افترشه الرّجال والصّبية، جالسين يتمايلون مع عزف النّاي، وأنين الرّباب، وكان المغنّي يزوّق الكلام فتسطل القلوب، وتصرخ الحناجر:

- الله عليك يا سيدي.. قول كمان.. قول.

الطّار اهتز، وارتعشت الصّاجات، وصدح النّاي، وطار دخان الشّيش، وعبق الشّاي الثّقيل مثل عطر يميس على رقبة ست بكر ما لها في الجمال مثيل، وصوت المغنّي مثل مزمار حاد يزيل الصّدأ من على الأرواح:

- رَمتِ البُنيّة. الوردة الدّابية.. والقلب يا عيني م الشّوق بيعاني.

أمسك بائع الأقمشة بالزّهرة الدّابية، ونظر إلى فوق، ورأى الحب، فوضع الوردة في سيّالته، ومضى في طريقه، ولم

يدخل بيت صاحبة الزّهور.

وقال المعلم، وهو يشد دخان النّارجيلة:

- دا راجل محترم وابن ناس.. ما دخلش خرابة الشّرموطة.

وقالت المرأة، وقد جلست على أريكة «أرابيسك» تحت «المشربيّة»:

- ما رأيت في الرّجال مثل هذا الرّجل. ما انبهر بحسني ولا جمالي ولا هزّه غمز عيوني! كيف يا ناس أرسل له قلبي الملهوف؟!

يقول «الأزروق»: أخبرنا «حسين» بن «علمة» قال: أخبرنا «جاسر» بن «سالم» البلوي، أخبرنا «حاجب» بن «جليل» عن «الشدّاده» بن «غنيمة» أنّه قال: قال «عمرو» بن «الحجاري»: حدثنا «سمير» الزّهري، قال: فقالت، وقد رأته يقدم من أول الطريق: عساه يرق اليوم لحالي، ويتشوّق لوصالي. فلمّا صار تحت مشربيّتها، راعها منه نحوله، وهزال خطوه وذبوله، لكنّها ألقت زهرتها، فأخذها، مثل كل مرة، وقد رفع عينيه إليها، فرأت فيهما ما لم تره من قبل، عشقًا تأجّج، وغرامًا تبلّج، وقلبًا يثج هواها ثجًّا، فتمنّت أن لو يدخل البيت إليها، لكنّه مضى من غير أن يفعل.

كباي النُّور الكهربا تكب النُّور الكهرباء، والحفل يلألئ، والنِّساء ما عرفن يمسكن أعصابهنَّ من روعة صدح النَّايات، فزغردنَ وهن يطللن من الطَّاقات والشَّبابيك، والرجال جالسون على فرش الأرض مغمورين بوجد المغنِّي:

- ما كانت البنت تعرف عشقها في الولد عمل إيه.. سهّرو الليالي يسأل في نفسه حالي انقلب كدا ليه.. العشق حرية يشنّها الحبيب عَ القلب.. وقع الولد يا ناس ولا حد سَمّى عليه!

وصرخ السمِّيعة:

- الله. الله. الله.. قول تاني.. تاااااني.

فيغمز المغنِّي بإحدى عينيه، ويهز رأسه وهو يبتسم، ثم يكسر صوته:

- العشق حرية..

العاشقة تمشي في مخدعها بخطى واهنة، بطيئة، تتجه إلى قفص أسلاكه موشَّاة برقائق الذَّهب، وقد تدلَّى، من السَّقف العالي، بسلسلة روَّقتها رقائق الفضة، به عصفور «الكناريا» الملوَّن يقف وقد أمال رأسه، وأسبل عينيه، ملتذًّا بمنقار عصفورة «الكناريا»، وهي تدغدغه في رأسه.

العاشقة تقترب أكثر من القفص، فترفع عصفورة

«الكناريا» منقارها عن رأس العصفور وتصأصئ، تنظر نحو الوجه بديع الجمال، وعينا العاشقة تبرق في بحيرة دموعهما أنوار القناديل المزركشة بالألوان.

- يا بختك يا عصفورة.

تصأصئ عصفورة «الكناريا» بينما تهز رأسها، تحدِّق بعينيها في وجه بنت «آدم».

والعاشقة تشهق بأنفاس ملتاعة.

الطَّرق على رقائق النُّحاس يرن بغير ما يرن به الطَّرق على كُتل الحديد.

هذا طرق على النُّحاس، وشهيق الطَّارق، بالمطرقة الثَّقيلة، يمتزج برفير النَّار المنفوخة بالكير الضَّخم، ورنين منغَّم لصاجات نحاسيَّة في يد بائع «العرق سوس»، وهو يمشي على مهل بينما يرفع صوتًا شاديًا:

- صلِّي على النَّبي.. العرق سوس المتلِّج.

وظهر بائع الأقمشة من غير أقمشة، بطيء الخطو، زائغ النظرات، وبشرة وجهه اصفرَّت، لونها الذي يلوِّن وجوه العشَّاق، سهر الليالي يلوِّن بفرشاة الوجد.

مشي حتَّى وقف تحت «المشربيَّة»، لكن الزَّهرة لم تسقط، فرفع عينيه إلى فوق، فلم ير الطَّاقة مفتوحة.

استدار، ودخل البيت.

الولد، وهو يضع الفحم، المسكونة فيه النّار على معسل نارجيلة المعلّم، قال:

- شفت يا معلّمي.. بيّاع القماش دخل بيت الشّرموطه.

قال المعلّم:

- أنا قلت بيّاع القماش رجل محترم.. وأنا لا أرجع في كلامي.

بحلق الولد في وجه المعلّم، وبربش، وقال:

- بس دا دخل بيت الشّرموطه.. وانت يا معلم قلت..

ولم يكمل كلامه، لأن المعلّم ركله بقدمه، وقال:

- وانت مالك يا حشري! أنا المعلّم «سمير» الزّهراني، أقول الكلمه لا ارجع فيها.. أنا قلت بيّاع القماش راجل محترم.. يبقى بيّاع القماش راجل محترم.. حتّى لو دخل بيت الشّرموطه.

وقال المعلم «سمير» الزّهراني، والدّخان يتدفّق من فمه وأنفه:

- ثلاثة أيّام ترمي له الورد ولا يدخل.. ولمّا ما رمت ورد دخل! عجيبة!

السّهرة في ليالي الأرياف تحلو مع مغنّي السّير، وليس أحلى من ضرب الرّباب لمّا يمتزج بشدو حناجرهم، تقع المعاني، في قلوب السّامعين، فتفعل فيها ما يفعله الخمر في قلوب الذّائبين في العشق، وشيش النّخيل المسجم مع الحكاية، حتّى الكلاب ربضت على حواف «الصّوان» المكشوف، تهز رأسها.

غنّى المغنّي:

- دخل الحبيب عشّ الحبيب ظنّه هايفرح بيه... وإنّه بعد طول السّفر رست المراكب بيه... ما كانش يعرف إن الزّمن غدرات... لم يبعت في يوم فرح إلّا والوجع قبليه....

صعد السّلم الحجري، يتساند على درابزينه المعمول من الخشب والحديد، ها هو أمام الباب المعلق، نظر إلى ورود نُحتت حول إطار الباب، وتلوّنت بألوان وهّاجة، فتأكّد له أنّه حتمًا أمام باب الجنّة، ولأن أبواب الجنّة لا تُطرَق، وإنما تُفتح أمام المريد للدُّخول فتحًا جميلًا، فقد انفتح الباب، فتحته حوريّة من حور العين، وكان الفتى قد بلغ به الضّعف، والهزال، أنّه لم يستطع الشّهيق الذي أراده لمّا تجلّى له الحسن فرحًا، ودخل مهوتًا، وسبقته إلى السّرير تبكي، فاندفع نحوها بآخر قواه، وضمّها إليه، وأحاطها بذراعيه، وشمّ شعرها، وحك خدّه بخدّها، وقبّل عينيها، ودحرج شفتيه على شفتيها، فتواثب الدّم في عروق

بائع الأقمشة، وكان هذا خطيرًا، ومميتًا.

يقول «الأزروقي»: أخبرنا «حسين» بن «علمة» قال: أخبرنا «جاسر» بن «سالم» البلوي، أخبرنا «حاجب» بن «خليل» عن «الشدّاد» بن «غنيمة» أنّه قال: قال «عمرو» بن «الحجازي»: حدّثنا «سمير» الزّهراني، قال: وأخذت تخلع ما عليها من ثياب، فبان منها الذي أمر بستره ربُّ الأرباب، ولمّا أراد التّاجر لمسها، عادت بعد اللعب إلى حذّها، وقالت: «إذا كنت تريد دخول جناني، فأتني بإسورتي من قعر آنية الذّنان». فتحرّك المسكين إلى الآنية، وبين خطواته تتساقط بقع دم قانية، لمّا رأتها المرأة فزعت، فهمّت أن تسأله عن حاله، لكنّها بعد الهم سكنت، ورفع التّاجر غطاء «البرميل»، فبرقت في وجهه الإسورة المرصّعة.

يا نغمة الرّبابة الحزينة، ويا صوت المغنّي الباكي:

- مَدّ الولد إيده فِ لمّة الثّعابين.. طلعت ماسكة الغويشة والسّم مِ الثّعابين.

نسيم ليالي الصّيف في الأرياف، ونجوم السّماء تبرق، والسّهرة ممتدّة، والعاشق يموت، والنّساء دموعهن سالت من الشّبابيك، فأغرقت الأرض التي يجلس عليها أهل السّامر، وارتفعت الدّموع عن الأرض حتّى صعدت إلى المنصّة التي يقف عليها المغنّي.

العاشق يسحب يده من «البرميل»، فيها الإسورة، بينما تعلّقت بها إحدى الأفاعي، وقد غرست نابيها في معصمه.

صوت صرخة المرأة يمتزج بصأصأة فزعة أطلقتها عصفورة «الكناريا».

المرأة تهز يد العاشق بقوّة، فتسقط الأفعى في «البرميل»، ثم تسنده على كتفها حتّى تمدّده على الفراش، عيناه غائمتان، شفتاه ترتعشان، ثم تنفرجان بصعوبة، بالغة، عن بسمة واسعة.

يمد يده، بالإسورة، إلى حبيبته، وحبيبته تنظر إلى دماء ارتشحت على صدره.

خلعت عنه الجلباب، فتبدّت الدّماء وقد أغرقت «الصّديري».

خلعت عنه «الصّديري»، فتبدّت الدّماء وهي تنشع من فانلته، القطنيّة، ذات الكمّين الطّويلين، وثمّة بروز، غير عادي، يظهر من تحت الفانلة، ناحية القلب.

خلعت عنه الفانلة، فهالها ما رأت، وانكبّت على صدره تبكي.

زهورها، الثّلاثة، مرشوقة في لحم صدره، مخترقة مابين الضّلوع، لتنغرس في القلب.

ركب المغنّي قاربًا، وضرب بمجدافيه، فانساب على بحر الدُّموع، والموجات الصَّغيرة تكسِّر وجه القمر، وناس الرِّيف على أسطح البيوت، يقذفون بالطُّوب ناحية القارب، وكانوا يزعقون:

- يا مغنّي يا ابن الكلب.. أغرقتنا وترحل!

قال الولد للمعلّم «سمير» الزّهراني:

- يا معلّم.. الرّاحل دخل بيت الشّرموطة من أسبوع ولم يخرج.

- يمكن يكون خرج في وقت متأخّر من إحدى الليالي السّبع! مستحيل يقعد هناك كل هذا الوقت.. نظرتي فيه إنّه راجل محترم.

فقال الولد، وهو ينفخ في النّار التي تأكل المعسّل:

- لكن الشّرموطة هي الأخرى لم تعد تظهر في «المشربية» يا معلّم.. أقطع ذراعي إن ما كان بيّاع القماش جوّه.

فقال المعلم:

- يا ولد.. تشم الرّائحة الحلوة التي أشمُّها! أنا شامم رائحة ورد!

يقول «الأرزوقي»: أخبرنا «حسين» بن «علمة» قال.

أخبرنا «جاسر» بن «سالم» البلوي، أخبرنا «حاجب» بن «خليل» عن «الشّداد» بن «غنيمة» أنّه قال: قال «عمرو» بن «الحجازي»: حدّثنا «سمير» الزّهراني، قال: وطرقنا باب منزلها، فلمّا لم ينفتح كسرناه كسرًا، وكان الذي رأيناه عصيًّا على الفهم، لكنّه يزرع في القلوب الفكر والهم، فلقد كانت المرأة محشورة في برميل ممتلئ بالأفاعي، وكان تاجر الأقمشة مُعلّقًا ميتًا في مسمار غليظ كاليراع، على الجدار المتّسع الذي في مواجهة المشربيّة، وكان عريانًا تمامًا، وقد انغرست في قلبه ثلاث وردات من الورد الأحمر البلدي، وكان كل ما نراه عجيبًا في بابه، غريبًا في نوعه، لكن ما كان أعجب وأغرب، هو رائحة الورد التي كانت تتدفّق، حتّى إن كل سكان الحي شمُّوها، فمشوا زمنًا مسطولين......

ولم يكن ممكنًا ألّا يضم كتابي هذه الحكاية العجيبة، والرّواية الغريبة، وإن كنت أشك في صحّتها، لكنّها تستحق الذّكر من فرط روعتها. ولقد ذُكرت لي حكاية أخرى لا تقل غرابةً، جرت مع سقًّا لا يقل صبابة، قال «نعمان» بن «جميل»: حدّثنا «علي» بن «الصياد»: أخبرنا «مسعود» الناسخ أنّ «عبد الرحمن» بن «القللي» قال: حدّثنا «سمير» الزّهراني فقال: كان في زقاقنا سقًّا، بحكم شغلانته يدخل كل البيوت، وكان........


الغد الأقصى

القطـار، الفاخـر، يدخـل محطـة «الأقـصر» عـلى مهـل، قادمًـا مـن «القاهـرة»، سـيتوقّف قليـلًا قبـل أن يتحـرك مـرة أخـرى متجهًـا إلى «أسـوان».

العربات مليئـة بطلبـة وطالبـات الجامعـات، الذيـن يجوبون بـلاد «مـصر» السّياحيّة خـلال موسـم الرّحـلات الشّـتوي الذي، عـادةً، مـا تنظّمــه إدارات الجامعــات، بالتّعــاون مــع الأسر الطّلابيـة، للتعـرف عـلى آثـار «مـصر» وتاريخهـا المدهـش.

كانـت إحـدى الفتيـات قـد اسـترخت في كرسـيّها، المحـدوف مسـنده إلى الـوراء، تسـتمع إلى أغنيـة لـ «عبـد الحليـم حافظ»، ينسـاب صوتـه، فيهـا، غاضبًـا، مـن مسـجل «أسـتريو» وضعتـه عـلى فخذيهـا الرّشـيقين المضغوطـين في بنطلـون «جيـنز» ضيّـق.

«قلبي قول للحب يبعد عن طريقي».

حركـة نشـطة هـبّت فجـأة بين الشّـباب في العربـة، فبرنامج الرّحلـة يـبـدأ بالـنّزول في «الأقـصر» أولًا، ومـع عنفـوان هـذه

الحركة لم يتنبه أحد لدمعتين، حارّتين، تنزلقان من عيني البنت، فتجريان على خدّين نُسجا من حرير ورديّ.

صافرة القطار يتردد صدى نفيرها بين جدران المحطّة، المشيّدة على النّسق المعماري الفرعوني، وهو يُبطئ من حركته، تمهيدًا للتوقُّف. والبنت العاشقة تحترق بنار قلب يُحب لأوّل مرّة، فلم تنتبه إلى كونها يجب أن تستعد لمغادرة القطار.

و«عبد الحليم حافظ» يغني بالوَجد المُلتاع «أيّ حب جديد يا ويله من حريقي».

توقّف القطار.

«لو ها صادف قلب مُخلِص...».

فجأة..

صراخ بعض الشّباب يأتي من ناحية الباب الدّاخلي للعربة، ممزوجًا بخبط حديد في جوانبها المعدنية، وصرخات بنات تمتزج بصيحات هادرة، غاضبة:

ـ «الله اكبر».

«... موش ها آمن له وأصونه».

البنت تلتفت، بعينيها الدّامعتين، نحو الضّجيج المرعب،

فترى شابًا، ملتحيًا، يرتدي جلبابًا أبيض، يقبض بيده على «جنزير» يُطوّحه في الهواء، قبل أن يهوي به على أجساد الأولاد والبنات.

لم يكن وحده، كان يتبعه آخرون.

«وإن ضحك في عينيا هاضحك وأخدعه ويمكن أخونه».

عينا الملتحي، الذي يتصدّر المجموعة، غارقتان في السّواد، فيهما جمال ساحر، تتألّقان بنظرة قاسية، وبشرته قمحاويّة، تلمع بوميض ذكوري فتّان، ولحيته، ذات الشّعر النّاعم، الفاحم، المنسدل، ألقت عليه مهابة رجل أسطوري.

«زي غيرنا ما باع نبيع عُمر الهوى وعهده».

الدّماء تتفجّر من الجباه المشقوقة، ومن الرّقاب المُمزّقة، ومن الأكتاف المُهشّمة. والصّرخات تنزلق من حناجر أعطبها فزع مفاجئ.

وتكبيرات، فائرة بالغضب، تعلو:

ـ «الله أكبر، الله أكبر».

الملتحون انتشروا في كل العربة مثل ملائكة العذاب، يمزّقون العُصاة، ويُبعثرون دماءهم.

والست تنظر إلى هذا الملتحي بالتَّحديد، الشَّاب المملوء بالمهابة الأسطوريَّة، تراه وهو يفرد عضده المحشو عنفوانًا، ويُطيح بـ«الجنزير» نحو الأجساد التي تكوَّرت خوفًا.

«شعره جميل أوي.. طويل وفايض من تحت طاقيته البيضا.. بيطير حوالين رقبته وخدوده».

لم تعد في عينيها دموع، وإنما نظرة تائهة، تتأمَّل هذا الملتحي، وهو يقترب منها، يطيح بـ«جنزيره».

لم تكن في عينيها نظرات رعب لمَّا نظر في عينيها.

ماذا رأى في عينيها جعل ذراعه يتعلَّق في الهواء قليلًا قبل أن يهوي به على الـ«ريكوردر»؟!

سقط الجهاز على أرض العربة، وأطلقت البنت آهة مكتومة، لكنَّها استمرت في النظر بانبهار لهذا الملتحي الأسطوري، الفرعوني المنتصر، الذي يجلد أسراه، بينما يبتعد عنها.

واستمر «عبد الحليم» يغني بالصَّوت الملتاع: «زي قلبي ما ضاع تضيع كل القلوب بعده».

«وِشَّها زي وِش ملاك.. أستغفر الله العظيم.. إزَّاي أشبِّه وِش بنت بتعصى ربِّنا بوِش الملايكة اللي مش بيعصوا ربِّنا أبدًا؟!»

نظر إلى وجهه في مرآة حوض الحمَّام.

« وِشَّها زي القمر.. عنيها فيهم.. حنان.. يمكن دفا.. شفايفها بلحتين رُطَب.. أستغفر الله العظيم.. ماكانتش نظرة ع الماشي.. دي كانت نظرة شِيطان.. خلِّت صورتها تلزق جوَّايا!»

كان وجهه جامدًا، متجهِّما، كارهًا للدُّنيا وما فيها.

«مش عارف ليه كل العُصاة وشوشهم منشرحة؟! يضحكوا قوي! سعدا قوي! عايشين الحياة قوي! أستغفر الله العظيم.. نعوذ بالله من سوء المُنقلَب.. إنَّهم لاهون.. سادرون في غواية الشَّيطان.. كان رسول الله لا يُرى إلَّا مهمومًا.. يفكِّر كيف ينشر الدَّعوة.. الوجه المبتسم لا يليق بأصحاب الحمول العظيمة».

بلَّل وجهه بالماء، فالتمعت بشرته القمحاوية، ومسح شعره بيديه المبتلتين فومض ببريق مكتوم، وبدا رأسه، بعينيه الحائرتين، كرأس المسيح المرسوم، مصلوبًا، على خشبة اللعنة.

«أنت الآن تقوم بمهمة عظيمة، حِمل من الحمول الثَّقيلة، ومش سهل أبدًا إنَّك ترجَّع كلّ هؤلاء المسلمين الضَّالين إلى الفهم الصَّحيح للإسلام».

المرآة ليست مصقولة تمامًا، لكن عينيه واضحتين جدًا، كانتا تحدِّقان في وجهه، وقد امتلأتا بالاندهاش، لقد تغيَّرت ملامحه، صارت أكثر جمالًا، وأشد قسوة.

منذ زمن طويل لم يدقِّق النَّظر هكذا في ملامحه.

«طيِّب ليه البنت دي بالتَّحديد من بين كل البنات اللي في القطر ما استحملتش أضربها بالجنزير؟!»

خرج من الحمَّام، ارتدى جلبابه الأبيض، وحشا رأسه في الطَّاقية البيضاء، ثم توجَّه إلى القبلة.

الهزيع الأخير من الليل، الوقت الذي يتنزَّل فيه الله من على عرشه إلى سماء الدُّنيا، ينادي عباده، يعرض عليهم قضاء الحاجات، ويعرض عليهم الغفران، فقط يستيقظون الآن، ويُصلُّون، يفرشون جباههم على الأرض، ويبكون، يتذلَّلون، وليلحُّوا في الدُّعاء، الله يحب العبد اللحوح.

صياح ديك على سطح بيت قريب، يرد عليه كلب بنباح كسول.

«انت تعمَّدت تيجي ضربة الجنزير في جهاز التَّسجيل! تعمَّدت إنَّك ما تئذيهاش!».

رفع كفَّيه إلى مستوى أذنيه، وخرج صوته متهدِّجًا:

ـ «الله أكبر».

في كل صلاة، بعد التَّكبير، يبدأ في مجاهدة قلبه، لا فائدة في صلاة من غير خشوع، لن يتقبَّل الله صلاة حشوها مشاغل الدُّنيا الملعونة، وحتَّى يتغلَّب على الشَّيطان الذي سيحاول شغل قلبه بسفاسف الأمور، يبدأ في تذكُّر حال من أحوال الرَّسول الكريم، فيتخيَّله واقفًا يصلِّي، قدماه تتفطَّران من طول القيام، أو يتمثَّله جالسًا مع أصحابه، في المسجد، يبادلهم حوار ما بعد صلاة الصُّبح.

في بدايات صلوات أخرى يفكر، أحيانًا، في معاني كلمات القرآن، مثلًا: «الرَّحمن الرَّحيم».

يتردَّد صوت الشَّيخ «رسلان» في عقله:

ـ «الرَّحمن» لأنه يرحم كل مخلوقات الأرض، ما من دابَّة على الأرض، تعقل أو لا تعقل، إلَّا وهي في رحمة الله، «الرَّحيم» صفة رحمة، مخصوصة، لمن وحَّد الله ولم يشرك به أحدًا، وآمن برسله، ولم يُنكر منهم أحدًا، هذه رحمة للمسلمين فقط، يرحمهم بها دنيا وآخرة.

الآن لا يرى إلا وجهها، ونظرة عينيها التي أربكته بضعفها، ضعف من غير خوف! لا ضعف ولا خوف! وإنَّما نظرة مبهرة.

«مش عارف!».

- «الله أكبر».

وركع.

كانـت تسـتطيع أن تـرى «النيـل»، أثنـاء وقوفهـا في شرفـة الغرفـة الـتي تـنزل بهـا، هـي وإحـدى صديقاتهـا، في نُـزُل الشّباب بـ«الأقصر»، ثـم الحقـول الواسـعة الممتـدّة حتّى الجبـل الرّابـض في الأفـق، كانـت مكوّنـات الصُورة، الـتي تمـلأ عينيهـا، تصنـع لوحـة مـن الجمـال الباهـر، تبعث في روحهـا ألـق حيـاة تتجـدّد في داخلهـا

أفاقت على صوت صديقتها وهي تقترب منها:

- كلُّهم خرجوا من المستشفى يا «لبنى».

همست:

- الحمد لله.

النّسيم الشّتوي، المخلوط بـدفء الشّمس، يمسح وجهها ورقبتها، ويُطيّر شعرها، وتحدّق في الجبـل الرّابـض في الأفـق، كان هـو المكوّنة الوحيـدة، في الصُورة، الـتي تقلقهـا.

نظرت إلى صديقتها، وأشارت إلى الجبل، وقالت.

- كان المنظر هايبقى أروع لو الجبل دا مِش هناك.

- بالعكـس، المنظـر كـدا أحـلى كتـير.. بيجمـع مـا بـين

المتناقضـات، «النّيـل» والجبـل، خـضرة الحقـول وصفـرة الصّحـراء، الحيـاة والمـوت.....

سرحـت بناظريهـا في الشّـمال، حيـث الأفـق ممـدودًا حـتّى يـذوب في دكنـة رماديـة تحـدّ انطلاق البـصر، كان وجـه الملتحي يـبزغ في هـذا الأفـق مثـل شـمس الصّبـاح، وشـعره يطـير مـن تحـت طاقيّتـه المصغوطـة في رأسـه، الوجـه الأسـطوري يمـلأ الأفـق، ولحيتـه تـتـدلّى بـين أشرعـة المراكـب المنسـابة عـلى سـطح «النّيـل»، وتنغمـس في المـاء المقـدّس.

عادت إلى واقعها على صوت صديقتها المشاكس:

- كل دا حب؟ يا بختك يا «ميشو»!

لـم تنـم «لبـنى» ليلتهـا السـابقة، رغـم الإجهـاد الكبـير الـذي عانـت منـه بسـبب مـا حـدث مـن هجـوم الإرهابيـين على القطـار، وضربهـم كل مـن فيـه بالجنازيـر، كانـت إصابـات أصدقائهـا، وصديقاتهـا، خفيفـة، رغـم ذلـك كان لا بُـد مـن الذهـاب إلى المستشـفى لإثبـات الاعتـداء، حـتّى تـبـدأ الأجهـزة الأمنيـة في العمـل، ليلـة عصيبـة، لكـن «لبـنى» بالتّحديـد كانـت في عالـم آخـر.

«شـكله مِـش مـن العالـم دا خالـص.. كإنّـه مـن عالـم تـاني.. الجنزيـر في إيـده شـبه سـيف في إيـد محـارب قديـم».

ما الذي أعجبها في «ميشو» فأحبّته!

إنّه ليس أكثر من ولد خفيف الظّل، مُرفّه، متّفق مع موضة العصر، شعره المهوّش، والـ«تي شيرت» الضّيق، والبنطلون «الجينز» المحزّق.

بنات الجامعة كُنّ يتهافتن على الجلوس معه، هل أحبّته لأنّها كانت تتمنّى لو أنّه يحصّها بحبّه فتهزم كل هؤلاء البنات؟

أم أحبّته لأنّه، من بين كل شباب الجامعة، الوحيد الذي استطاع، ببساطة شديدة، كسر الحاجز الذي يقيمه جمالها الفاتن بينها وبينهم؟

أم أحبّته لأن قلبها، في الأيام الأخيرة، يدفعها دفعًا للحب، وكان «ميشو» أجرأ ولد، تمكن من اختراق عالمها الخاوي، ليشعرها بالونس؟

تقلّبت في الفراش كثيرًا، وبدأت تشعر برأسها يكاد ينفجر، لم يكن هناك صداع، ولا ألم، وإنّما قلق.

قامت من فراشها، صديقتها غارقة في النّوم بكامل ملابسها، وقد وضعت كفّيها بين ركبتيها من البرد، نظرت إليها نظرة حانية، قبل أن تمرد على جسدها النّحيف بطانية طُويت، بعناية، على حافّة الفراش.

فتحت باب الشّرفة فضربها النّسيم البارد، الشّتاء في «الأقصر» يعتدّ بعافيته ليلًا، فتتحوّل إلى مدينة أوروبيّة مثلّجة، لا ينقصها إلا تساقط ندف الثّلج.

أنعشها الصّقيع، لتتمرّغ عيناها في لوحة ناعسة، ظلام تخطّفه أنوار بارقة يسبح في نيل مُعتم، وشارع صامت وقفت فيه عربة «حنطور» يتيمة وقد خبّأ حصانها رأسه في كيس «التّبن» المُعلّق في رقبته، بينما في الأفق العربي أنوار بعيدة، تومض وتخبو، لبيوت ارتمت في حضن الجبل...

جبل «القرنة».

تسرح.

القطار المكيّف يجري، وجسدها يهتز برتابة، الأولاد والبنات يتنقّلون هنا وهناك، يتبادلون كلامًا ويضحكون، «ميشو» يجلس على كرسي في المربع الذي يقابلها وقد انهمك في حكاية موقف مضحك لمجموعة من البنات تحيط به، تقطع ضحكاتهن حكايته.

تجلس وحيدة في كرسيّها المُلاصق للنّافذة وقد ضايقها أن من تحبّه لا يشعر بوحدتها.

«انتي عبيطة أوي على فكرة.. لو بيحبّك كان ساب الدُّنيا كلّها وجه يقعد معاكي وحدك.. بحط دماغه حسب دماغك

وما يبطّلش همس في ودنك بكلام الحب».

أخرجت، من حقيبتها، شريطًا لإحدى أغنيات «عبد الحليم حافظ»، وضعته في الـ«ريكوردر» فانسابت الموسيقي الأسيانة، وبينما تبدو، من خلف زجاج النّافذة، لمبات بيوت ارتمت في ظلمات حقول تركض إلى الخلف، كانت تنعكس، على نفس الزُّجاج، ملامح «ميشو» المنهمك في الضّحك.

تعود من سرحانها بسبب شدّة البرد في الشُّرفة، رغم ذلك لا تجد في نفسها رغبة في الدُّخول إلى غرفتها.

ليل «الأقصر»، مدينة الزّمن العتيق، رائحة «آمون» الدّافئة تتضوّع في هذا الصّقيع، هذا سحر في سماوات ليل مدينة التّاريخ.

لقد استطاعت أن تشم رائحته، رائحة مسك العنبر، سمعت عن اسم هذا العطر في شارع «الموسكي» المنساب في «مصر» القديمة، وشمّته هناك، لكنّها ها هي تشمُّه، مرةً أخرى، لمّا رفع ذراعه بـ«الجنزير»، ليـنزل به على الـ«ريكوردر»، كانت عيناه تغوصان في عينيها، بينما يتبعثر حوله عطر مسك العنبر.

رأت في عينيه عاشقًا!

هل يمكن أن يكشف العشق عن نفسه في لحظة وامضة، ومشحونة بعنف القتل!

وعندما استدار، الملتحي، إلى المربع المجاور، استلقى «ميشو» بظهره إلى الوراء، في عينيه دعر، يرفع ذراعيه محاولًا اتقاء ضربة «الجنزير»، بينما شفتاه مضمومتان ترتعشان، غير قادرتين حتّى على الصُّراخ.

رائحة مسك العنبر تتناثر في ليل مدينة التّاريخ، تدق الصّقيع قليلًا، فتبقى «لبنى» في الشُّرفة، تحملق في الأضواء البعيدة، التي ترتعش في صدر جبل «القرنة» المظلم.

الساعة الآن السادسة صباحًا، ما زالت هناك أربع ساعات متبقِّية حتّى يحين ميعاد مقابلة الأخوة القادمين لتنفيذ عملية جهادية في «الأقصر»، فقرَّر ألّا يخرج من «الزّاوية»، وأن يقرأ قرآنًا حتّى يقترب الموعد.

تحرَّك نحو الخزانة المتهالكة بجوار «المسر»، مدَّ يده ليأخذ مصحفًا.

المصاحف قديمة، وذائبة، هرّأها تراب الأزمنة.

«فُتحت الدُّنيا على المسلمين، فنسيو دينهم، بيوتهم امتلئت بكل وسائل التّرفيه، بينما المصاحف في المساجد ياكلها التُّراب والهجر».

جلس مستندًا بظهره إلى «المنبر» المبني بالأحجار، وقبل أن يفتح المصحف، خطف بصره عصفوران اخترقا نافذة «الزّاوية» إلى داخله، ذكر يطارد أنثاه وهي تتقلّب في الهواء، تناور بمهارة، كي لا يلحق بها، بينما ترتفع شقشقاتهما، ثم انطلقا إلى الخارج، من نفس النّافذة، وبنفس السّرعة التي دخلا بها.

«ليه ما ضربتهاش بالجنزير زي ما ضربت كل اللي في القطر؟!»

«دي كانت أكترهم فتنة وإغواء.. بلوزتها محزّقة على الآخر.. لونها لون جسدها.. بنطلونها مزنوق بلحمها.. كانت عاملة زي العريانة.. يعني أكتر واحدة فيهم عاصية ربّنا.. ومع ذلك ما ضربتهاش!»

فتح المصحف، ومع أن عينيه تنظران بتركيز إلى أسطر الكلمات المقدّسة، إلّا أنّه لم يتمكّن من قراءة أيّ كلمة، فوجه البنت، بكامل فتنته، مطبوع على صفحتي المصحف المتقابلتين، شعرها القصير المنسدل كحرير حتّى منتصف الرّقبة، الرّقبة المنحوتة من رغبة، الفارعة فوق صدر نُحت في أوسطه مجرى للاشتهاء، ينساب بين بركانين يتفجّران بالشّبق.

«أستغفر الله العظيم.. دي كانت تستحق القتل».

«الجنّة في عينيها.. كل اللي عايزه من ربّنا في عينيها.. راحة.. أمان.. شباب.. طعام.. شراب.. أشجار.. أنهار.. الخلود نفسه في عينيها.. متهيألي مش ممكن أموت وأنا باصص في عينيها.. أستغفر الله.. أستغفر الله..»

قطرتان، من دمع حار، سقطتا على ورق المصحف فتشربهما.

نظر إلى الورق المقدّس، المبتل بدموعه، ثم انطلقت من صدره عاصفة بكاء، أغلق على إثرها المصحف، وتركه يسقط في حجره، ليضع كفّيه على وجهه، ويرتجّ من قسوة النّحيب.

«عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله».

«وأنا عيني ما بكت من خشية الله.. ولا باتت تحرس في سبيل الله.. سهرت عيني تـــ وأبكاها الـــ.. أستغفر الله العظيم.. اغفر لي يا رب».

يشهق، وصدره يتطبّق، والعصفوران يخترقان باب «الزّاوية»، يطيران بالمناورة، لا يلحق الذّكر بأنثاه أبدًا، ولا يكفّان عن الشّقشقة، ثم يخرجان بنفس السّرعة.

يقف، يمسح دموعه بكُمّ جلبابه، يضع المصحف في

الخزانـة القديمـة، يأخـذ حـذاءه، ويخـرج.

نسـيم الصَّبـاح، البـارد، يلسـع وجهـه، رائحـة العيطـان في البكـور، ونـور الشَّـمس البهـيّ، ونـاس يسـحبون البهائـم نحـو الحقـول.

أمال رأسه ينظر إلى الملابس التي يرتديها الآن، تأفّف.

«إزّاي بيطيقوا يلبسو الهدوم دي؟!»

«انت مضربتهاش عشان حبّـ... ».

يمـشي، عـلى مهـل، في المـدقّ الضَّيـق بـين الحقـول، رأسـا تمثـالي «ممنـون» يبـدوان ويختفيـان بـين خلـل شـواشي النَّخيـل، لـم يـزل الموعـد بعيـدًا، ساعتان بكاملهما متبقيتـان.

«مـا تركـتُ فتنـةً أشـدّ عـلى الرجـل اللبيـب الحـازم مـن النسـاء».

«صدقـت يـا رسـول اللـه.. البـت قلبـت حـالي.. حـوّاء قلبـت حـال آدم»

هز رأسه بقوّة، ينفض ما بدأ يلتصق بعقله.

«ليلتصـق بالقلـب مـا يلتصـق.. هفـوة وبنصلـح الحـال.. لكـن العقـل لازم يبقـى عفـي.. مُـنزّه عـن الحـب والـكلام الفـاضي ده.. خاصـة هـذي العقـول الـتي تعتمـل في تلافيفهـا همـوم

كـبرى».

الطريـق الإسـفلتي، الواسـع، الـذي يصـل جبـل «القرنـة» الغـربي بنهـر «النّيـل».

حقـول القصـب تمتـد عـلى مرمى البصر، تمثالا «ممنـون» يراقبـان الزّمـن بثبـات، وجبـل «القرنـة» رابـض بملامحـه الفرعونيـة، مثـل أسـد في تمـام الانتبـاه، يستشـعر خطـرًا، مـا، يقـترب.

«بحبُّها؟»

ارتبكـت خطواتـه عـلى الأسـفلت، وشـعر برأسـه يـدوخ، فوقـف ينظـر حولـه مثـل تائـه ضـل الطّريـق.

«تحبُّهـا؟! تحـب واحـدة تُحادّ اللـه ورسـوله؟! بنـت بتجهـر بالمعصيـة! وتُشـيع الفاحشـة في الأرض بسـفورها الفاجـر؟! بـدل مـا تـبرأ مـن أفعالهـا تِحبّهـا؟!»

«جدِّد إيمانك يا من تدَّعي الإيمان».

أخرجـه مـن سرحانـه «كلاكـس» سـيارة «كبّـوت»، ينبِّهـه السّـائق إن كان يحتـاج «توصيلـة» حـتّى «المعدّيـة»، فأشـار إليـه بالتّوقّـف.

وركب.

في «الكبُّوت» مزيـج مـن رجـال ضربهـم الهـرم، يرتـدون الجلابيـب الصَّعيديَّـة، ذات الأكمـام الواسـعة، وقـد غطـوا رؤوسهم بلفائـف «العِمَـم» البيضـاء، وشـاب يرتـدي أحـدث مـا طلعـت بـه «الموضـة»، ونسـاء ريفيَّـات اكتسـين بالجلابيـب السُّوداء الطَّويلـة، و«الطُّـرح» الـتي تسـدل عـلى شـعورهن، وأخريـات يرتديـن الفسـاتين الملوَّنـة، وكشـفن شـعورهن، وتلوَّنـت وجوههـن بألـوان «الماكيـاج».

«مـا هـو حريـم بلادنـا بيعصـوا ربّنـا بالتّبرُّج برضـه.. طـب ليـه مـش بنضربهـم بالجنازيـر؟!»

السَّـيارة تقطـع الطَّريـق برتابـة، جبـل «القرنـة» الرَّابـض مثـل أسـد منتبـه يبتعـد حثيثًـا، وتمثـالا «ممنـون» يـداحـان إلى الـوراء.

«بايـن علينـا مـا بنضربـش الـلي بنحبُّهـم مهمـا كانـو بيعصـوا الله».

«أستغفر الله العظيم».

كانت السيارة تقترب من النهر.

ترتـدي «تي شـيرت» نصـف كُـم أحمـر، وبنطلونًـا واسـعًا أبيـض، الهـواء يطـيِّر شـعرها، ويمـلأ الـشُّراع الضَّـارب في السَّـماء، فيتهـادى المركـب، فـوق صفحـة «النّيـل»، مثـل إوزة

رشـيقة.

فـردت ذراعيهـا بشـكل متعامـد عـلى جسـدها، تسـمح للهـواء الدَّافئ بالتَّسـلل مـن تحـت إبطيهـا إلى بـاقي جسـدها الملمـوف، فيُداعـب مسـام جلدهـا، وتنتشي.

المركـب مزدحـم بأصدقائهـا وصديقاتهـا، يصنعـون هالـة مـن مـرح صاخـب تتَّسـع في سـماء «النّيـل»، بـدا وكأنَّهـم نسـوا أحـداث الأمـس المرعبـة، رغـم أن الضِّمـادات تتـوزَّع عـلى مناطـق مختلفـة مـن أجسـادهم.

- واضـح إنِّـك زعلانـة أوي مـن «ميشـو».. دا انـتي مـش بتبصّي ناحيتـه حتَّى!

- أنـا سـافرت مـع بابـا بـلاد كتـيرة جُـوَّا «مـصر» وبرَّاهـا.. أزعـم إن أجمـل أوقـات الطَّقـس عـلى مـدار السَّـنة هيَّـا أوقـات الضُّحـى في الشِّـتا الأقـصري.

ضحكت «سميرة»:

- دا انـتي زعلانـة منـه بشـكل وحـش أوي! مـش طايقـة سيرته للدرجة دي؟!

صفحـة «النّيـل» صافيـة الزُّرقـة، ومركـب كبـير غـير شراعي، صـوت محركـه يطغـى عـلى صخـب المـرح، مملـوء بالنَّـاس، يمـزِّق الأمـواج الصَّغـيرة، عابـرًا النَّهـر مـن ضفَّتـه الغربيَّـة إلى

الضفّة الشّرقية، حيث مدينة «الأقصر».

رأت «لبنى» المركب الكبير وهو يقترب جدًّا من مركبهم الشّراعي، حتّى إنّها، في لحظة، ظنّت أنّهما سيصطدمان، وقبل أن يدق قلبها هلعًا، رأت ما كان مفاجئًا لها جدًّا.

الملتحي، الأسطوري، ينظر إليها وقد فتح فمه وعينيه على اتّساعهما.

- «هُوَّا.. هُوَّا!!»

- «هِيَّا.. هِيَّا!!»

تلوّح له، في عينيها اللهفة، فهوى قلبه متراقصًا مثل قشّة في نسيم، ورفع ذراعه، كان سيلوّح لها، أيضًا، عندما تذكر أنّه ملتحٍ، وأنّ النّاس ينظرون إليه.

وبينما مركبها الشّراعي يبتعد، تحرك مهرولًا إلى آخر «المعدية»، كي تكون في حدود رؤيته لأطول وقت ممكن.

وعندما ابتعدت جدًّا، واختفت، سقط قلبه من شاهق، واصطدم بصخور ناتئة، فتعلق صريعًا بإحداها، ينبض بآخر قطرات دم فيه.

«شاورت لي وأنا مش قادر أشاور لها!»

«أحسن إنّك ما شاورتش لها.. المرأة حبل من حائل

الشيطان.. يريد أن يسحبك به من دنيا الله إلى عالمه المُنحلّ.. يريد أن يُلقي بك في جهنّم».

«لكن...».

استقرت «المعديّة» على المرسى المُخصّص لها، وتدافع ركّابها إلى خارجها، صاعدين السّلم ذي الدّرجات الصّخريّة إلى شارع «الكورنيش».

معبد «آمون» ذو الأعمدة المهولة، والصُّروح الضّخمة، والشّجر الذي تهذّبت أغصانه فصار أسطواني الشّكل، مرصوصًا على امتداد الشّارع، السّياح يمضون على مهل، يستمتعون بشمس الضُّحى الأقصريّة، والأفراس تركض راقصةً، تجرُّ عربات «الحنطور» السّوداء، المُحلّاة بصفائح النّحاس اللامع.

رغم طول المسافة فضّل أن يمشي على قدميه حتّى فندق «إيريس»، ما زالت أمامه ساعة من الوقت، والعديد من المشاعر المتضاربة، والمشي يساعد كثيرًا على ترتيب الذّهن.

لأوّل مرّة ينظر إلى السّياح على أنّهم بشر مثله.

في وجوه بناتهم ملامح من وجه البنت التي يحبُّها الآن، إنّهن جميلات جدًّا، في عيونهن مرح بريء.

«السّياح يحبّون أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين.. نظراتهم بريئة لكن قلوبهم مش بريئة خالص.. دي طريقتهم في نشر الفساد.. انظر.. بناتهم عرايا.. نهودهن تتقافز مثل طيور تُذبَح.. أستغفر الله العظيم.. ووراكهم بتلمع بالحُمرة...»

اقترب من مبنى السّوق السّياحي، عن يساره بالضّبط الجزء الأخير من معبد «آمون»، «قُدس الأقداس»، نُقِشت على جداره، المواجه له، صورة منحوتة لإله الخصب عند الفراعنة، رجل يقف مستقيمًا بينما بدا عضوه الذّكري منتصبًا تمامًا، طويلًا كخنجر، حيًّا كغصن شجرة غضّ.

كثيرًا ما اختلس النّظرات إلى هذا النّحت الغريب في أيّام طفولته، وفي أيّام مراهقته شغف بهذا النّحت، ولمّا عرف أن هذا إله الجنس عند الفراعنة، أحبّ الفراعنة الذين احترموا هذه الرّغبة في الإنسان. لم يحقّروا الشهوة، ولم يباعدوا بين الرّجل والمرأة، ولم ينكروا على العشّاق الحُب.

«رغم أنّهم أوّل من وحّد الله...»

«الكورنيش» يذخر بالسّياح، ملابسهم خفيفة في عز الشّتاء، مثل ملابس...

«اسمها إيه؟! لازم اسمها جميل زيّها.. خفيف النُّطق.. محلّع.. يا سلام لو يكون اسمها «لبنى»! باحب الاسم دا..

لبسها خفيف مع إنها راكبة مركب شراعي في قلب النّيل.. في عز الشّتا.. زي الخواجات».

سائح عجوز يرتدي ملابس كاملة، زاهية، و«بريطة» تُخفي نصف رأسه، يقبض بيده على يد سائحة عجوز مثله، تمشي بجواره مبتسمة، وسعيدة.

«لا تغتر بسعادتهم الكاذبة.. الكفّار لهم الدُّنيا وفقط».

«قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أحببتُ من دنياكم الطِّيب والنّساء».

«ولمّا سألوه عن أحبّ النّاس إليه، قال... عائشة».

«انت مجنون؟ مقارنة إيه دي اللي بتعملها بينك وبين أطهر خلق الله.. رسوله محمد.. ولا بين واحدة متبرجة تُشيع المنكر في القلوب الظمآنة وبين عائشة المطهرة من فوق سبع سماوات؟!»

«بس اللي في قلبي دا مِش حاشه مُنكَر.. حاشه حب للحياة».

يمشي متمهلًا، على يمينه المراكب الشّراعيّة تنساب على سطح «النّيل» مثل نوارس، والأمواج الصّغيرة تتقافز مثل آلاف من أسماك «السّلمون» الصّغيرة، والحقول الخضراء افترشت البر الغربي حتّى جبل «القرنة» الثّابت في الأفق،

وعلى شماله رض، في أنفة وكبرياء، فندق «ونتر بالاس» القديم، تحفة معمارية تحتفي بالإنسان المبدع.

لماذا يقطِّب الملتحي الأسطوري جبينه الآن؟!

«وهُوَّا حبِّي للحياة ممكن يتعارض مع حبِّي لله عز وجل؟!»

«يا لبنى.. انتي فين دلوقتي؟»

إنَّها في النَّهر، في مركب شراعي اختفى تمامًا من أفق الرؤية.

«لو ربِّنا قدَّر لي أشوفها مرَّة تالتة.. مش هاسيبها. دا قلبها كان بيتنطَّط تحت الـ«تي شيرت».. أستغفر الله العظيم».

هتفت بلهفة:

ـ هُوَّا.. هُوَّا.

وأخذت تلوِّح له بكلتا ذراعيها.

«سميرة» اندهشت:

ـ مين دا؟!

ـ الملتحي الأسطوري اللي ضربنا في القطر.

فتحت «سميرة» عينيها على منتهى اتساعهما، «المعدية»

تمرق أمامها مزدحمة بالبشر، وثمَّة ملتحٍ يبدو واقفًا بين النَّاس، يحملق في «لبنى»، بدا شكله مختلفًا عن شكل الملتحين، الإرهابيين، الذين ضربوهم في القطار، كانوا يرتدون جلابيب بيضاء، وطواقي بيضاء، لكن هذا الملتحي يرتدي قميصًا هفهافًا أسود، منقوشًا بخطوط طولية زرقاء، فوق بنطلون من «الجينز» الشَّميك، شعره منطلق من غير طاقية، ولحيته تلمع من غزارة دهنها.

كان أقرب إلى شباب «الهيبز»، من أن يكون متطرِّفًا إسلاميًّا.

ـ معقولة؟! دا مش شبههم أبدًا يا «لبنى»!

«المعدِّية» تبتعد متوجِّهةً نحو البر الشَّرقي، والمركب الشَّراعي يمرق نحو الشَّمال، كادت «لبنى» تقفز ناحية المراكبي لتصرخ فيه بطلب العودة إلى الشَّاطئ، لكنَّها لم تفعل خجلًا من الأصدقاء.

«هُوَّا لابس كدا ليه؟!»

ـ إيه رأيك بقى يا «سميرة».. الملتحي الأسطوري ولَّا «ميشو»؟!

كانت نظرات الاندهاش لم تفارق بعدُ عينَي «سميرة»، تتابع «المعدِّية» التي تبتعد، فقط حوَّلت عينيها إلى وجه

«لبنى» وقالت:

- انتي مجنونة يا «لبنى»؟!

- شكلي كدا حبيت الأسطوري دا يا «سميرة».

- إيه؟! بتقولي إيه؟! تحبّي إرهابي؟!

هزت «لبنى» رأسها مؤكّدةً، بينما نظرة تحدٍّ تلوح في أفق عينيها، قالت:

- مش إرهابي.

واصلت «سميرة» النّظر باندهاش إلى «لبنى»، وقالت بنبرة ساخرة:

- وهُوَّا اللي بيفرض أفكاره بالقوّة على النّاس ممكن يكون إيه غير إرهابي؟!

- بالمعنى دا كلّنا إرهابيين.. كلنا بيحاول يفرض أفكاره على الآخرين بشكل أو بآخر.

- أنا مستغرباكي جدًّا يا «لبنى»! انتي لغاية ليلة امبارح كنتي بتحبي «ميشو»!

صوتاهما يتوه في صخب أغاني أصدقاء الرّحلة، والمركب الشّراعي ضرب في عمق الشّمال جدًّا، حتّى إن بنايات «الأقصر» وعماراتها اختفت عن أنظار الجميع، وبدت على

جانبي النّهر لوحات الخُضرة المرسومة للحقول والنّخيل، كل التّضاريس تغيّرت، إلّا جبل «القرنة» البعيد، ما زال رابضًا خلف الحقول، يتوهّج تحت أشعة شمس تتّجه نحو قلب السّماء.

- «ميشو»؟! دا بنت مش راجل.. دايمًا قاعد مع شلّة بنات وعمّال يتسهوك معاهم! بصّي له كدا!

«لكن.. الملتحي الأسطوري راجل كامل الرجولة.. عيشته بين الرّجالة.. وبيضرب ضرب رجّالة.. حياته زي حياة الفرسان.. مليانة أخطار.. لكن عينيه مليانة حنان.. آه من عينيه».

- لو شوفتي في عينيه اللي أنا شوفته يا «سميرة»!

واجهة مدخل فندق «إيزيس»، زجاج قاتم فخم، خادم يرتدي جلبابًا مزركشًا على النّسق المملوكي يفتح الباب.

دخل.

نظر إلى الجالسين في «اللوبي» نظرة متفحّصة.

رست نظراته على وجه شاب جلس وحيدًا في ركن منزوٍ، يرتدي «تي شيرت» أبيض، وسروالًا قصيرًا يتجاوز الرُّكبة بقليل.

تحرك ناحيته، وعندما اقترب منه ألقى عليه تحيّة الإسلام بصوت كاد يكون هامسًا.

رد الشّاب التّحية بصوت منخفض أيضًا، لكنّه حاد وبارد، مثل نصل سكّين، وأشار بيده يدعوه للجلوس.

جلس في الكرسي الوثير، ثمّة موسيقى هادئة تنساب في عبق «بارفانات» تشع من أجساد تستمتع بالحياة.

تقدّم الشّاب، بجذعه، إلى الأمام، مقتربًا من الملتحي «الأسطوري»، وهمس بصوته الحاد، البارد:

- بكرة بمشيئة الله.

- هُوَّا ممكن يا «سميرة» الأقدار تعملها تاني.. وأقابله صدفة في البر الغربي بكرة؟!

- والله موش بعيدة! اللي خلّاكي تشوفيه صدفة النّهارده ممكن يخلّيكي تشوفيه صدفة بكرة!

جبل «القرنة» يظهر في أفق الليل كتلة ظلام، ترتعش فيها مجموعة أضواء تعلّقت به كحشرات تسلّقت جسد حيوان ميت.

- موش قادرة أحب الجبل دا!

في شُرفة غرفتهما بالنُّزل، وهلال واسع، ذهبي، يتهيّأ للانزواء خلف سنّ الجبل، ورائحة أمواج «النّيل» طازجة، أنفاس حياة من صدر عذراء.

- من حُسن الحظ إن «حتسبشوت» ما كانتش بتكره الجبل دا زيّك.. وإلّا كنّا اتحرمنا من التحفة المعمارية اللي اسمها معبد «الدّير البحري».

باخرة سياحية تتهادى في «النّيل»، تتلألأ أضواؤها وتنعكس مرتعشةً فوق الأمواج الصّغيرة.

- «حتسبشوت» بنت معبدها من أجل الموت.. دا جبل الموت.

هزت «سميرة» رأسها بدلال وقالت:

- أبدًا.. معلوماتك خاطئة يا «لبنى» هانم.. اللي بنى المعبد دا المهندس «سنموت».. موش عشان الموت.. عشان الحب!

- لأ؟ وجبتي الكلام دا من فين بقى؟!

- يا بنتي انتي ناسية إن أنا «آداب» قسم «تاريخ»؟! قصة حب «حتشسوت» لـ«سنموت» مشهورة.. ونهايتهم الغامضة خلّت قصّتهم مُهيّأة تكون من أجمل قصص العشّاق في التّاريخ الإنساني كلّه.

- جبل مليان مومياوات! جبل مليان موت.. مستحيل يكون مكان لقصة حُب.

- بالنّسبة للفراعنة كان الجبل دا ممر آمن لحياة الخلود

الشّعيدة.. المهندس «سنموت» اختار أنسب مكان لبناء المعبد.. هُوَّا حَب يقول لـ«حتشبسوت»: «حبنا خالد وسعيد».

أدارت «سميرة» وجهها منصرفة عن النّهر، لتنظر بتمعُّن في وجه «لبنى».

انعكاسات أنوار لمبات «الصّوديوم» الصّفراء، المتراصّة بطول الشّارع، على وجه «لبنى» جعلته نحاسيًّا، ومهيبًا مثل وجه ملكة فرعونية.

«سميرة» همست بالجد:

- انتي بتحبي الإرهابي دا فعلًا؟!

يجب أن يركع، قبل أن يعتدل، ليهوي ساجدًا، وإلّا بطلت الصّلاة.

هكذا هي صلاة المسلمين.

وأحلى ما يصلّيه المسلم هي تلك الصّلاة النّافلة، التي تكون في الثّلث الأخير من الليل.

في هذا الوقت يتنزّل الله من عليائه تنزّلًا يليق به، حتّى لا يكون بينه والأرض أي سماء من سماواته السّبع، يسمع للمقهورين، وأصحاب المطالب، ويلبّي.

بطلت صلاته، إذ إنّه أخذ يبكي وهو قائم، يرتج بعنف، ودموعه تسح مثل فيضان، وبدلًا من أن يركع أولًا، هوى ساجدًا، واختلط صوت بكائه بكلام يتكلّمه مع الله، وخرج صوته مثل عواء، وديك يصيح في الخارج.

«هاتعمل إيه بعذابي يا رب؟! قلبي بين إصبعين من أصابعك.. تقلّبه كيف شئت.. ليه قلبته ناحية البنت دي؟!»

وجهه منكفئ على الأرض، جبهته مضغوطة، أنفه مسحوق بينما مُحاط بسائل منه، يمتزج بدموع عينيه الفيّاضة، وعيناه غائمتان لا تريان إلا ظلام الانكفاء.

«أنا أحبك يا الله أكتر من أي شيء، لكن...»

رفع رأسه، واعتدل جالسًا على ركبتيه، يشهق كأنّه سيموت، ويمسح دموعه بكفّين مفرودين.

«إحنا مش بنضرب النّاس إرضاءً لله.. إحنا بنضربهم عشان ما بنحبّهمش.. بنضربهم عشان بنكره واقعنا اللي بيرغمنا على إننا نتحوّل لمجموعة جُبنا.. الحكومة الظّالمة.. الرّئيس المستبد.. المعركة يجب أن تنتهي بانتصارنا.. مش هانكون جُبنا أبدًا».

«يعني الله مش أكتر من وسيلة.. هُوَّا سلاح المعركة. مش غايتها!»

انتفض، ولم يشعر بنفسه إلا وهو يصعد، بحذر، درجات السُّلم الطِّيني، الصَّاعد إلى سطح البيت، والهواء البارد يحتويه.

«البني آدم اللي قابلته في الفندق ليس في سيماه أي ملمح من ملامح التقوى! شكله بتاع مخابرات.. أو واحد من عصابة بلطجية.. دا أبعد ما يكون عن رجل من رجال الله».

سواد الليل، ليل ما قبل الفجر، السَّماء زيَّنها الله بالنُّجوم الوامضة، هسيس حشرات الحقول، صمت الرُّؤية الهاجعة، يرى كتلتي تمثالي «ممنون» رابضتين إلى الشَّرق من بيته، تنعكس عليهما الأنوار الذَّهبيَّة التي تشعُّها أعمدة الطَّريق المُسفلتة.

لكن نورًا غمر عينيه، فجأة، ليرى وجه فتاة القطار، بريئًا، جميلًا، ساحقًا بدلاله، وخلفية موسيقية تنسكب مثل عطر المسك.

«هيَّا ما خافتش مني ليه؟!»

جبل «القرنة» شاهق، التصقت البيوت بانحداره، يربض مثل أسد يترقَّب خطرًا يقترب.

«بحبَّها.. أهواها.. بعشقها».

فوق السَّطح، يرى الدُّنيا في ظلام الاستكانة، حقول

القصب تمتد إلى حيث لا نهاية، النَّسيم بارد، وحبيبة مجهولة، لا يعرف لها مكان سوى أنَّها في مكان ما من مدينة «الأقصر»، بالتَّأكيد هي في أحد الفنادق، و«الأقصر» تذخر بعشرات الفنادق ذات الدَّرجات السِّياحية المختلفة.

«البحث عنها مش هايكون من الأعمال التي ترضي ربَّنا».

تتقلَّص معدته، تنقبض، تنقلب، رغبة مفاجئة في التقيُّؤ، يزوم، ينفجر، صدره يتطبَّق، عواؤه يتردَّد بين جذوع النَّخيل، يمزِّق خشوع ليل ما قبل الفجر، فتبادله الكلاب نباحًا عاليًا، عشرات الكلاب تنبح في كل مكان من الأرض، ويشعر بمعدته تدفع ضلوعه، تشق طريقها بمنتهى الصُّعوبة ناحية فمه، تريد أن تترك البطن.

«ما فيش أقوى من الله سلاحًا في حربنا ضد التَّجبُّر والطُّغيان، لن ننصر يومًا واحدًا لو ما حاربناش باسم الله».

«اعترفت أيها الحقير! الله مش أكتر من مقوِّي.. حبوب للشجاعة.. أو مُسكِّن للألم.. لم تكن حربنا يومًا في سبيل الله».

عواء القيء يمزق، بضراوة، لحظات السَّكينة السَّابقة للفجر، وصار نباح الكلاب يملأ الأرض.

«في أي آية من القرآن حرَّم الله علينا حُب البنات؟!»

القيء ينقطع فجأة، وتنزلق المعدة منسابة إلى مكانها، تخف حِدَّة نباح الكلاب، والدُّموع والمخاط بلّلا وجهه ولحيته بغزارة، يستنشق الهواء ببطء من يعود للحياة.

نسيم الفجر يدنو، وصوت «كروان» عابر، «كروان» وحيد.

ـ الله أكبر.. الله أكبر.

صوت المؤذِّن نعسان، خاشع، طري، يتضوَّع بنسمات الصَّباح المقبل، ويمتزج بصدح «الكروان» الوحيد.

«أهواك.. أهواك.. أهواك».

الساعة الثامنة والنصف صباحًا، حافلة سياحيَّة فخمة تقف في مكان مجاور لمرسى «المعدِّية» في البر الغربي، سائقها يجلس بداخلها، يستمع لإحدى محطَّات «الرَّاديو» الإخباريَّة، عندما فوجئ بشاب يرتدي زيّ شرطة الأمن المركزي الأسود، يدلف إلى الحافلة بسرعة، مدجَّجًا ببندقية سريعة الطَّلقات، وعندما فتح السائق فمه، معترضًا على سلوك هذا المجنَّد، كان آخرون، يرتدون نفس الزي، يصعدون إلى الحافلة بنفس الخفَّة والرَّشاقة، مدجَّجين بنفس السِّلاح، نظراتهم القاسية أغلقت فم السائق تمامًا، وعندما أمره أحدهم بالتَّحرك،

وقد وجه فوَّهة ماسورة البندقية إلى صدغه، أيقن أنَّه قد وقع ضحيَّة عملية إرهابيَّة من تلك العمليَّات التي انتشرت في صعيد «مصر» أخيرًا..

الحافلة تمضي على الطَّريق المتَّجه إلى جبل «القرنة»، طيور «أبو القردان» تحلِّق في السَّماء، شمس ناصعة السُّطوع تنشر دفئًا في الأرض، ودقَّات جرس كنيسة في البر الشَّرقي تتراقص مع النَّسيم، يُشرق صوتها لحظات، ويختفي أخرى.

الحافلة السِّياحية تجري بسرعة، في باطنها خمسة من رُسل الموت.

تمثالا «ممنون» لاحا على يمين الطَّريق، محا الزَّمن وجهيهما، وهشَّم بعضًا من أجزائهما التي نحتها صبر الإنسان.

ظهرت في السَّماء أسراب غربان، وجبل «القرنة» أسد رابض، نفر شعره الغزير حول رأسه.

الخطر يقترب جدًّا.

الملتحي «الأسطوري» يقف بمحاذاة تمثالي «ممنون»، ينتظر الحافلة وقد حمل، أيضًا، سلاحًا غطَّاه بلفافة من قماش.

أبطأت الحافلة من سرعتها، وما إن انفتح بابها حتَّى قفز إلى داخلها، قبل أن تقف تمامًا، فأحدث تستعيد سرعتها.

كان عليه أن يغيِّر ثيابه، ويرتدي زي عساكر الأمن المركزي.

أقل من خمس دقائق ستمر قبل الوصول إلى الهدف، كمين الشُّرطة الرَّئيسى الذي على المفارق، ثم نقطة الشُّرطة السِّياحية الموجودة هناك.

عملية كبيرة، إن تمَّت بدقَّة ومهارة، ستكون صفعة مدوِّية على وجه وزارة الدَّاخلية، بل على وجه الحكومة كلِّها، التي سيشلها توقف السِّياحة.

حاول أن يختلس نظرات خاطفة لعيون رفاقه، عيون صامتة، راكدة، مثل كائنات ميتة، لم يشعر ناحيتهم بمودَّة الأخوَّة في الجهاد، ولا تلك البراءة التي استشعرها في تنفيذ عمليات سابقة، لم يكن في صدور هؤلاء هذا الغضب من أجل الله، الغضب الذي لا يقتل الحياة في نظرات العيون.

«هل فيهم حد بيحب يا...؟!».

«لا أظن.. العيون دي لا يمكن تكون عيون مُحبِّين».

«ومين أدراك بعيون المُحبِّين؟ هه؟ كأنَّك قضيت عمرك عاشق!»

«حبينا واحنا عيال.. وفي المراهقة. قبل ما يمنّ الله علينا بالطريق ده. كانت عيوننا بتتكلِّم.. عيون المُحبِّين مش خرسا زي عيون الجماعة دولا».

سمع صدى عوائه وهو يتقيأ ليلة الأمس، ونباح الكلاب التي أيقظها صوته، ودعاء «الكروان».

«يمكن في اللي هايموتوا النهارده حد ليه بنت بتحبه منتظراه».

وسطع وجه «لبنى».

عبرت الحافلة المفارق، ولم تتوقَّف عند «الكمين»، وإنَّما اتَّجهت إلى اليمين، كما أشار أحدهم إلى السَّائق.

كان هذا مفاجئًا للملتحي «الأسطوري»، فالذي يجري الآن هو خارج الخطَّة التي يحفظها، ورغم ذلك لم يكن بمقدوره النُّطق.

تلجأ قيادة الجماعة، كثيرًا، لمثل هذا التَّمويه، حتَّى لا تستطيع الأجهزة الأمنيَّة التَّعرف على خططها بالتَّجسُّس، أو التَّعذيب.

في النِّهاية، هناك خطَّة، ويجب أن تُنفَّذ.

تجري الحافلة على الطَّريق الإسفلتي، المُحاري لسفح جبل «القرنة»، الذي يكاد يهب، من ربضنه، من فرط

إحساسه باقتراب الخطر.

ـ فعلًا يا «سميرة».. «سنموت» كان عاشق حقيقي!

«لبنى» تنظر إلى معبد «حتسبشوت» بعينين مندهشتين، وقلب منبهر.

ـ العاشق مبدع.

ـ وخايف دايمًا يا «سميرة»! بصّي للمعبد.. كإنّه مستخبي في حصن الجبل! إيه اللي خلّى «سنموت» يحاول إخفاء هذا العمل الفذ؟!

«سلوك العشاق هو إخفاء مشاعر الحب، كتمانها، أروع الحب أكتمه، العاشق يذيبه الهوى ولا يجرؤ على التأوُّه».

ـ «سميره».. أنا حاسّه اني هاقابل الملتحي «الأسطوري» هنا.

ـ مستحيل تقابليه هنا إلّا إذا كان جاي هوًّا وأصحابه عشان يضربونا بالجنازير!

واستدركت، «سميرة»، وهي تنظر في ساعتها:

ـ السّاعة دلوقتي تسعةه إلّا رُبع.. ولسّه قدّامنا معابد ومقابر فرعونية كتيرة لازم نزورها.. ونهار الشّتا قُصيَّر يا «لبنى».. وأنا موش باحبّ الفُرجة على الآثار بالليل.

ـ ليه؟

غمزت «سميرة» بعينها وهي تهمس:

ـ الليل للرومانسيات يا عبيطة!

السّاحة الواسعة، أمام المعبد، ازدحمت بالسّياح الذين ينتظرون أدوارهم لدخوله بصحبة المترجمين، وبعدد غير قليل من طلبة وطالبات الجامعات الذين انهمكوا في المرح، بينما انتشر في المكان باعة «الطّواقي» والهدايا ذات السّمت الفرعوني، وبازارات صغيرة اصطفّت في صفّين قصيرين، بينما موسيقى صاخبة، غريبة، تضج في المكان.

كانت «لبنى» قد بدأت تنظر إلى الطريق بقلق المنتظر.

ـ مالك يا «لبنى»؟

ـ حسّاه قُريِّب أوي.

حافلة سياحيّة تتوقف بالقرب منهما، يفتح بابها، ليقفز منه عساكر أمن مركزي بزيّهم الأسود، مُدجّجين بالبنادق سريعة الطّلقات.

مزق صوت الرّصاص، الذي انهال ناحية السائحين مثل المطر، ضجيج الموسيقى الغريبة.

لعن الله المفاجآت، إنّها مربكة.

قبل أن يعي أحد ما يحدث، كانت أجساد كثيرة قد سقطت مضرجة في دمائها.

ورأته.

الملتحي «الأسطوري»، مُدجَّجًا بالسِّلاح، شعره الطويل يطير حوله، ولحيته تنساب مثل شلَّال صغير، وفي عينيه حُب!

الجميع يجري هربًا من المكان، علا التُّراب الأصفر الرملي كسحابة، وجبل «القرنة» الصَّلد، خلف معبد «حتسبشوت»، يزأر بصدى صوت الأعيرة النَّارية التي تفح من غير انقطاع.

الشَّمس مبهرة، وضحى الشِّتاء الأقصري دفؤه بالغ الرَّوعة.

رأى الملتحي «الأسطوري» سائحًا شابًا ينكفئ على رفيقته، التي استلقت ميتة على الرمال، يتفجَّر الدَّم من رأسها، يريد أن يرفعها ليجري بها بعيدًا عن فيضان النَّار، فيخترقه الرَّصاص ليسقط فوقها.

قد لا يكون في هذا العالم من أحبَّ أحدًا مثلما أحبَّت «لبنى» هذا الملتحي «الأسطوري»، وإلَّا كيف تلهَّت عن كل ما يجري حولها، لتهرول بلهفة في اتِّجاهه، في عينيها حياة جديدة، نضَّاخة، فوَّارة بالعشق؟

لم يكن قد أطلق أيَّ رصاصة، فقط ينطلق خلف رفاقه، مذهولًا بما يجري، إنَّهم لا يُطلقون الرَّصاص فقط، إنَّهم يمزِّقون من يلقونه بخناجر مرهفة.

«إيه دا!»

وفي لحظةٍ داهمهُ شعور طاغ.

«لبنى هنا».

رآها وهي تجري باتِّجاهه، ملهوفة، في عينيها حياة جديدة، نضَّاخة، فوَّارة بالعشق، تخترق الغبار، تطير فوق الجثث، تحلِّق بين زخَّات الرَّصاص، تخترق صرخات الرعب بوجهها المطمئن.

معبد الدَّير البحري، قصة حب خالدة ربطت بين «حتسبشوت» و«سنموت»، ومنحوتة نهايتهما الغامضة.

زخَّة رصاص فائر تشرخ الهواء، تنطلق بسلاسة لتمزِّق نهد «لبنى» الأيسر، وتخترق قلبها، ثم تفتِّت لوحة الكتف، وتخرج من ظهرها.

الدَّم يُبك، و«لبنى» تواصل الجري باتِّجاه الملتحي «الأسطوري»، بينما ابتسامتها المُتَّسعة تضيق، وألم ينشع في عينيها.

في السَّماء أسراب من طيور الإوز المهاجرة، تحلِّق بعيدًا،

بدأب.

سقطت «لبنى» على وجهها، وبينما تغالب الموت، ترفع رأسها تنظر للملتحي «الأسطوري»، وقد وقف بجوارها كتمثال فرعوني، يحدّق بذهول، من غير حركة، في عينين تفرفطان.

«معقول إنّ رسولنا صلوات الله وسلامه عليه ما اتكلمش عن الحب؟!»

يميل عليها، يجلس بجوارها، يعدل من وضعها لتستلقي على ظهرها، يضع رأسها على فخذه، يمسح خديها، همست:

- اسمي «لبنى».

همس:

- عارف.

ابتسمت.

انهمرت دموعه.

ضحى الشّتاء الأقصري دفؤه بديعًا، وصوت الرّصاص المتقطّع، وأصحاب البذلات الميري السّوداء، ينهبون الجثث، ويمزّقونها بالخناجر.

تحشرج صوتها:

ـ أهواك.. باحبك.. باعشقك.

عوى مثل كلب مُتعَب.

لم يكن رأسها ثقيلًا عندما مال، لم تكن عيناها مرعبتان عندما ثبتتا ناحية سرب إوز بدا وكأنّه مرسوم في لوحة السّماء.

«كام حديث عن الحب تحدّث به رسول الله ولم ينقله لنا الرُّواة؟»

أراح رأسها على الرمل، وقف، وببطء رجل بلغ من الهرم عتيًا رفع بندقيته، صوَّبها ناحية رفاقه، وضغط على الزّناد.

«أحبَّ الله أن يسعد آدم فخلق له امرأة تحبُّه».

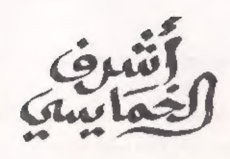
كان يغرس دبشك البندقيّة في الأرض، وينكت ماسورتها في قلبه، عندما قفزت إلى ذهنه صورة إله الخصب الفرعوني، وعضوه المنتصب يرتعش رغبةً في النّماء.

ضغط على الزّناد.

بدت إوزّة أخرى، بيضاء، تطير بكل ما تملك من قوّة، تحاول اللحاق بالسّرب السّاكن في لوحة السّماء.

ضحى الشّتاء الأقصري بديعًا جدًّا.

فهرس



روائي مصري وصلت روايته «منافي الرّب» للقائمة الطويلة بجائزة البوكر العربية 2014، والجائزة الطويلة لجائزة معهد «أكيودي» الصيني.

كما وصلت روايته «انحراف حاد» للقائمة الطويلة بجائزة الشيخ زايد فرع الآداب.

صدر له:

«الجبريليّة» مجموعة قصصية، الهيئة العامة لقصور الثقافة 1995.

«الصَّنم» رواية، ط1 الهيئة العامة لقصور الثقافة 1999، ط2 دار الحضارة للنشر 2013. ط3 دار الربيع العربي 2014.

«الفرس ليس حرًّا» مجموعة قصصية، دار الحضارة للنشر والتوزيع 2011.

«الشّكاتة» مجموعة قصصية للأطفال، الهيئة العامة لقصور الثقافة 2013.

«منافي الرّب» رواية، دار الحضارة للنشر 2013.

«انحراف حاد» رواية، الدار المصرية اللبنانية للنشر والتوزيع 2014.

البنت تسير عارية نحو «المنبر»، ترتقي درجاته بمياسة، درجة درجة، حتّى جلست على مقعده، ونظرت إليّ من فوق، وهزت رأسها، فطار شعرها عبيرًا سلطانيًا.
نور في «المنبر»، ودموع في عيني، فكرة تعذّبني، وتحرق قلبي، هذه البنت ليست لي، هذه البنت مخلوق سماوي، وأنا ابن «آدم» المخلوق من طين، قد يطير الطّين في وسع السّماء، لكن الطّين طين، والسّماء سماء ...

أشرف الخمايسي

روائي مصري، وصلت روايته "منافي الرّب" للقائمة الطويلة بجائزة البوكر العربية 2014، والقائمة الطويلة لجائزة معهد "أكيودي" الصيني.
كما وصلت روايته "انحراف حاد" للقائمة الطويلة بجائزة الشيخ زايد فرع الآداب.
صدر له أيضًا رواية "الصنم" ومجموعتان قصصيتان: "الجبريلية"، و"الفرس ليس حرًا".

